٣٠٩٥٦

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ـ الجمهورية العراقية
رئيس مجلس الادارة الدكتور محسن خليل الموسوي

دار الحرية

المجلد التاسع عشر
ربيع ١٩٩٠
العدد الأول

رئيس التحرير طراد الكبيسي

سكرتيرة التحرير هدى شوكت بهنام

www.dorat-ghawas.com

المحتوى

البحوث والدراسات

١ ـ الشعر الجاهلي في ضوء نظرية باري لورد ..... د. عادل سليمان ٥ ـ ٢٠

٢ ـ قراءة جديدة لـ (عيار الشعر) لابن طباطبا ..... طراد الكبيسي ٢١ ـ ٢٧

٣ ـ الاصول الاكدية لعدد من المفردات والمصطلحات المندائية ..... د. صبيح مذلول ٢٨ ـ ٣٥

٤ ـ الغزالي من الاكاديمية الانسايكلوبيدية ..... مدني صالح ٣٦ ـ ٤١

٥ ـ الخط والريازة في العمارة العربية الاسلامية ..... محمود حمدي ٤٢ ـ ٤٧

٦ ـ جهود الخلافة للتحرر من النفوذ السلجوقي ..... د. نافع توفيق العبود ٤٨ ـ ٥٥

٧ ـ كتاب الفخري في الاداب السلطانية لابن الطقطقي ..... د. ناجي التكريتي ٥٦ ـ ٦٩

٨ ـ الجانب العلمي في كتاب الحيوان للجاحظ ..... د. جليل ابو الحب ٧٠ ـ ٧٦

٩ ـ المنسوجات والسجاجيد العربية الاسلامية ..... د. صلاح حسين العبيدي ٧٧ ـ ٨٤

١٠ ـ الشعراء السفراء في عصر ما قبل الاسلام ..... احمد اسماعيل النعيمي ٨٥ ـ ٩٩

النصوص المحققة:

١١ ـ اعلام النساء في الاندلس من كتاب التكملة لابن الابار ..... د. منجد مصطفى بهجت ١٠٠ ـ ١٢٤

١٢ ـ مواد البيان لعلي بن خلف الكاتب ـ القسم السابع والاخير ..... د. حاتم صالح الضامن ١٢٥ ـ ١٥٥

١٣ ـ رسالة ابن قتيبة في الخط والقلم ..... هلال ناجي ١٥٦ ـ ١٧٠

١٤ ـ يحيى بن ماسويه في الجنين وكونه في الرحم ..... محمود الحاج قاسم ١٧١ ـ ١٧٣

١٥ ـ أنشاد النابغة امام النبي (ﷺ) ..... د. مخيمر صالح ١٧٨ ـ ١٨٣

١٦ ـ الكتاب ـ الكتاب سيبويه ـ مقدمة الكتاب ..... د. محمد كاظم البكاء ١٨٤ ـ ٢٠٦

الفهارس والبيليوغرافيات

١٧ ـ الشعراء التعليميون والمنظومات التعليمية ..... د. رزوق فرج رزوق ٢٠٧ ـ ٢٢٦

١٨ ـ مصادر الصغاني وموارده لمؤلفاته اللغوية ..... د. احمد خان ٢٢٧ ـ ٢٤٣

ندوات

١٩ ـ عبد الحق فاضل ـ الباحث اللغوي ..... د. محمد الطوكي ٢٤٤ ـ ٢٤٩

رأي

٢٠ ـ اللام المفخمة فونيماً ..... سعيد الغانمي ٢٥٠ ـ ٢٥٢

عرض ونقد

٢١ ـ كتاب الدلائل للحسن بن البهلول ..... د. كمال السامرائي ٢٥٣ ـ ٢٥٥

٢٢ ـ قراءة في كتاب ـ فصول التماثيل في تباشير السرور ..... د. يونس أحمد السامرائي ٢٥٦ ـ ٢٦٨

٢٣ ـ ملاحظات على ما أنفرد به القراء ..... د. علي حسين البواب ٢٦٩ ـ ٢٧١

٢٤ ـ تصحيح كتاب التعريف لابي عمرو الداني ..... د. حسام النعيمي ٢٧٢ ـ ٢٨٠

مناقشات وإستدراكات

٢٥ ـ تعقيب على مفهوم التراث العلمي العربي ..... طاهر التميمي ٢٨١ ـ ٢٨٦

٢٦ ـ إستدراكات على (ببليوغرافيا عن الرحلات الى العراق) ..... سلمان هادي طعمة ٢٨٧

٢٧ ـ اخبار التراث العربي ..... اسامة ناصر النقشبندي ٢٨٨ ـ ٢٩٢

٢٨ ـ ندوات حول التراث ..... هدى شوكة بهنام ٢٩٣ ـ ٢٩٧

٢٩ ـ رسائل جامعية ٢٩٨

www.dorat-ghawas.com

مواد البيان
لعلي بن خلف الكاتب
المتوفى بعد سنة ٤٣٧ هـ
ـ القسم السابع والاخير ـ

تحقيق
د. هاتم صالح الضامن
كلية الاداب / جامعة بغداد

الباب السابع
في اوضاع الخطّ وقوانينه وترتيب الصدور والعنوانات والأدعية والتواريخ والختم
قول في الخطّ وأحكامه

قد مضى فيما تقدّم من القول أنّ الخطّ واللفظ يتقاسمان فضيلة البيان ويشتركان فيها، إذ الخطّ دالّ على الالفاظ، والالفاظ دالّة على الأوهام. ولاشتراكهما في هذه الفضيلة وقع التناسب بينهما في كثير من احوالهما، وذلك أنّ الخطّ واللفظ يعبران عن المعاني، إلّا أنّ اللفظ معنى متحرك والخطّ معنى ساكن وهو وإنْ كان ساكناً يفعل فعل المتحرّك بإيصاله مايتضمنه الى الأفهام، وهو مستقر في حيزه ومكانه. واللفظ فيه العذب والرشيق السائغ في الأسماع به (٣٢٤) والخطّ فيه الرائق المستحسن الأشكال والصور.

واللفظ فيه الجزل الفصيح، وهو الذي يستعمله مصاقع الخطباء ومفاليق الشعراء، ومنه المبتذل السخيف الذي يستعمله العوامّ في المكاتبة والمخاطبة. والخطّ فيه المحرَّر المحقّق الذي تُكتب به الكتب السلطانية والأمور المهمة، وفيه المطلق المرسل الذي يتكاتب فيه الناس ويستعملونه فيما بينهم.

واللفظ يقع فيه الخفي الاعراب الذي يتخوّن رونقه. والخطّ يقع فيه خطأ الهجاء الذي يهجنه ويقبحه، لأنّ حكم اللحن في اللفظ حكم خطأ الهجاء في الخطّ.

واللفظ إذا كان مقبولاً حلواً رفع المعنى الخسيس وقرّبه من النفوس، وإذا كان عيّاً مستكرهاً وضع المعنى الرفيع وبعّده من القلوب. والخطّ إذا كان جيداً حسناً بعث الإنسان على قراءة ماأودع فيه وإن كان قليل الفائدة، وإذا كان ركيكاً قبيحاً صرفه عن تأمل ماتضمّنه وإن كان جليل الفائدة.

ولمّا اشترك اللفظ والخطّ في الفوائد العامة التي جعلت فيهما وقع الاشتراك أيضاً بين آلتيهما، وذلك أنّ آلة اللفظ اللسان، وآلة الخطّ القلم، وكلّ منهما يفعل فعل الأخرى في الإبانة عن المعاني، إلّا أنّ اللفظ لمّا كان دليلاً طبيعياً جُعلت آلته آلةً طبيعية، والخطّ لمّا كان دليلاً صناعياً جُعلت آلته صناعيّة.

ولما تقاسمت الآلتان الدلالة أيضاً ونابت احداهما منابَ الأخرى أوقعوا اسم اللسان على القلم وشركوا بينهما فيه، فقال (٣٢٥)بعضهم: (القلمُ أحد اللسانين)، وقال الآخر: (القلمُ انطقُ اللسانين)، وقالوا: (الأقلامُ ألسنةُ الأفهام)، وقالوا: (بلاغةُ اللسانِ وبلاغة القلم)، و(فلان بليغ اللسان) و(فلان بليغ القلم).

ولما كان في هذه الرتبة من مقاسمة اللفظ البيان الذي إمتن الله تعالى بتعليمه على الإنسان وجب على الكاتب ان يعتني بأمر الخط ويراعي من تجويده وتصحيحه مايراعيه من تهذيب اللفظ وتنقيحه ليدلّ في سرعة وسهولة كما يدلّ اللفظ البليغ البيّن، لأنّ الخطّ وإن كان على الاطلاق في المنزلة التي ذكرناها من الشرف، فإنما تحصلُ فضائله التي عددناها للجيّد منه، كما أنّ المنطق وإن كان من الشرف بحيث وصفنا فإنما تحصل فضائله التامة لمنطق البليغ الألسن دون منطق العيّ الألكن، وكذلك سائر الصنائع الفاضلة على الاطلاق إنما يحصل فضلها للمستقلّ بها الماهر فيها دون الريّض المبتدئ.

www.dorat-ghawas.com

فينبغي للكاتب أنْ لايقذم على تهذيب خطه وتحريره شيئاً من آدابه، فإن جودة الخطّ أول الأدوات التي يتظمه بحصولها له اسم الكتابة ويحكم عليه إذا حازها بأنه من أهلها. وقد دخل بحسن الخطّ في الصناعة مَنْ إذا فحص عن مقدار معرفته وجب أن ينزّه عن نسبته اليها.

والطريق الى تحسين الخطّ يكون بثلاثة أشياء:

أولها: تصحيح أشكال الحروف.

والثاني: ترتيبها.

والثالث: تصحيح اضجاعه.

فأمّا تشكيل الحروف فهو الأصل في أدب الخطّ، لأن الخطّ إنما يُسمّى جيّداً إذا حَسُنت أشكال حرفه ورديّاً إذا قبحت.

وحُسْن صور حروف الخطّ (٣٢٦) في العين شبيهٌ بحسن مخارج اللفظ العذب في السمع.

وأشكال الحروف تنقسم في الأصل الى الجليل والدقيق، والجليل مايقع في الكتب السلطانية ونحوها، والدقيق مايقع في الكتب المشتركة.

ويتفرع من هذين الأصلين أقلام عدّة ذكرنا كثيراً منها في كتابنا الذي نعتناه بـ(آلة الكتاب).

والوجه في تصحيح حروف اضجاء أنْ يُبدأ أولاً بتقويمها مفردةً مبسوطةً لتصحّ صورة كلّ حرف منها على حيالها ثم يؤخذ في تقويمها مجموعة مركبة، وأنْ يُبدأ من المركّب بالثنائي ثم بالثلاثي ثمّ بالرباعي ثمّ بالخماسي، فإن هذه هي أمثلة الاسماء والحروف الاصلية، وأنْ يُعتمد في التمثيل على توقيف المهرة في الخطوط العارفين بأوضاعها ورسومها واستعمال آلاتها، فإن لكلّ خطّ من الخطوط قلمٌ من الاقلام المختلفة نظير آلات الصنائع المختلفة التي يصنع الصانع بكلّ آلة منها جزءاً ما من صناعته لايصنع به غيره، ولا يعوّل على حكاية خطّ من الخطوط والضرب عليه، فإن ذلك غير مجزٍ، لأن هذا لوكان كافياً لاستغنى في تعلّم جميع الصنائع عمن يوقفه عليها ويدلّه على الطريق القاصد اليها.

على أن كثيراً من أصحاب الخطوط المطلقة قد كتبوا طبعاً ولم يرجعوا الى التوقيف على طريقة من طرائق المجددين، إلا أنّ الأفضل أنْ يُبنى الخطّ على أصل يكون أساساً له، فإن مَنْ وصفنا حاله من أرباب الخطوط المرسلة إنما تحسن خطوطهم إذا نُظرت (٣٢٧) مجملة، فإذا وُصلت انكشفت فساد كثير من حروفها.

وأمّا ترتيب الحروف فإنّه ينقسم الى ستّة أقسام:

أولها: تأسيس الخطّ على الوضع المصطلح عليه، وذلك أنهم قسموا الخطّ الى نوعين، وهما: المحقّق والمطلق.

فأمّا المحقّقُ فهو ماصحّت أشكال حروفه على اعتبارها مفردة، وهو أفضل من المطلق، وهذا لايستعمل إلاّ في الأمورالجسيمة ككتب العهود، والاسجالات، والتمليكات التي تبقى على الاعقاب، والمكاتبات الصادرة عن الملوك الى الملوك الدالّة على قدر الكاتب والمُكاتب.

وأمّا المطلقُ فهو الذي تداخلت حروفه، واتصل بعضها ببعض وهو خطّ وُلِد من المحقّق، واستعمل في تنفيذ مالايمكن تأخيره من المكاتبات المهمة والأمور العامة. وهو أرشقُ وأحسنُ منظراً مادام مُجملاً، فإنْ فُصّلت حروفه ووقعت المقايسة بينها وبين حروف المحقق وُجد بينهما تفاضل كثير حسبما ذكرناه فيما تقدّم.

وثانيها: وضع كلّ قسم من قسمي الخطّ في موضعه الذي أشرنا إليه، لأن استعمال أحدهما في موضع الآخر خارج عن الأمر المعتاد.

وثالثها: لزوم الطريقة في كلّ واحد من الخطين وأنْ لايخلط حروف واحد منهما بحروف الآخر.

ورابعها: تمييز الفصول المشتمل كلّ فصل منها على نوع من الكلام عمّا تقدّمه ومايتلوه ليعرف مبادئ الكلام ومقاطعه فإن الكلام ينقسم فصولاً طِوالاً وقصاراً، فالطِوال كقسم القرآن الى سوره، ومنثور الترسل (٣٢٨) الى رسائله، ومنظوم الشاعر الى قصائده، وهذه الاقسام لاتشكل فتحتاج الى تميّز. والقصارُ كانقسام السورة الى الآيات، والرسالة الى الفصول، والقصيدة الى

www.dorat-ghawas.com

الأبيات، وهذه قد تشكل فينبغي أن تميّز الفصول القصار تمييزاً يؤمن معه من التخليط، فإن ترتيب الخطّ يفيد مايفيده ترتيب اللفظ، وذاك أنّ اللفظ إذا كان مرتباً يخلّص بعض المعاني من بعض، وإذا كان مخلّطاً أشكلت معانيه وتعذّر على مسامعه ادراك محصوله. وكذلك الخطّ فإنه إذا كان مميّز الفصول وصل معنى كلّ فصل منه الى النفس على صورته وإذا كان متصلاً دعا الى مراجعة تأمله راجعاً الى الفكر في تخليص أغراضه.

رشرط الفصول أنْ تكون تامّة قائمة بأنفسها لايعطف عليها شيْ من غيرها. ولهذا لاتقع حروف العطف في أوائلها. وقد يغلط الكاتب فيقول بعد تمام الفصل: وأعلمته ذلك، وهو خطأ، لأنّه إنْ كان فصلاً وجبَ أن تحذف الواو فيقول أعلمته ذلك، وإن كان عطفاً وجب التمييز في الفصل بفرجة يسيرة لأنهُ إذا كان الكلام في شيْ يبتدئ بالإخبار عنه أتى بما يختمه وشفعه بفصل الختم فقال: أعلمته ذلك، ليكون ابتداء بخبر لاعطفاً، فقد يعرض في نفس الفصل القصير مايحتاج الى التمييز أيضاً، كالجملة والتفصيل والشرط والجزاء والمقدمة والجواب، وليست هذه بفصول لأنها لاتشتمل على نوع تامٌ من الكلام قائم بنفسه (٣٢٩) منفصل مما يتلوه ويجب أن يفصل به بين هذه الأشياء ومايناسبها إذا وقعت في اللفظ بدون مايفصل به بين الفصول التامة ليكون ذلك دالاً عليها. وينبغي ألاّ يذكر الجملة في آخر السطر والتفصيل في أوّل الذي يتلوه، فإنّه تلبيس لاتصال الكلام، ولا أنْ يجعل في أوّل السطر بياضاً فيقبح بخروجه عن نِسَبِ السطور، ولا أن يفسح بين السطر ومابعده فسحاً زائداً عمّا بين كلّ سطرين لقبحه أيضاً، ولكن يراعي ذلك من أوّل السطر مقدراً(٣) الخطّ بالجمع والمشق حتى يتخلّص من هذا العيب.

وخامسها: حسن التدبير في قطع الكلام ووَصْلِهِ في أواخر السطور وأوائلها، لأنّ السطور في المنظر كالفصول، فإذا قطع السطر على شيْ يتعلّق بما بعده كان قبيحاً، ككَتْب بعض حروف الكلمة في آخر السطر وبعضها في أوّل السطر الثاني، مثل: كتاب وركاب وكلام وسلام وعصفور ومسرور، فإنهم ربّما فرقوا بين الحروف المنفصلة والحروف المتصلة منها إذا ضاقت عنها أواخر السطور فأثبتوا الحروف المتصلة من الكلمة في آخر السطر والمنفصل في أوّل السطر الذي يليه، مثل أنْ يكتب (مسرور) في آخر السطر ولايسعه الموضع فيكتب الميم والسين والراء في آخر السطر ويكتب الواو والراء في أوّل السطر الذي يتلوه، وهو قبيح جدّاً، لأنه لايجوز فصل الاسم عن بعضه، وأكثر مايوجد ذلك في مصاحف العامة وخطوط الورّاقين.

وقد يفصل الكُتّاب بين الكلمة التامة وصلتها، كقولهم: (وَصَلَ كتابُك) و(أيدكَ الله) و(وَرَدَ رسولُكَ)، والاحسن تجنبه إذا أمكن، (٣٣٠) فإن لم يكن فيجتنب القبيح منه وهو: الفصل بين المضاف والمضاف إليه كعبد الله وعبد السلام وغلام زيد وغير ذلك، لأن المضاف والمضاف اليه بمنزلة ذلك الواحد. والفصل بين الاسم وبين مايتلوه في النسب، كقولك: زيد بن محمد، لأنه لايجوز أنْ أنْ يفصل بين الاسم والمنسوب اليه كما لايجوز ان يفصل بين المضاف والمضاف اليه، فإن اضطرّ لضيق الموضع فيقطع على الابن ويجعله في حيّز الاسم الأوّل ويبتدئ في السطر الذي يتلوه بالاسم المنسوب اليه، فإن كان المراد بلفظ الابن تثبيت البنوة، كقولك: كان لزيد ابنٌ، جاز قطع الابن مماتقدّم. والفصل بين كلّ اسمين جُعِلا اسماً واحداً، مثل: حضرموت ونابطٌ شرّاً وذي رُعين وذي يزن وأحد عشر.

وسادسها: ترتيب المدّات التي تقع بين حروف الكلمة الواحدة، على أنّ كثيراً من المحررين يكرهون المشْقَ لإفساده خطّ المبتدي ودلالته على تهاون المنتهي، وكذلك كرهوا كتابة البسملة بغير سين مبيّنة إذ صارت سنّةً وعُرفاً.

وهذه المدّات تستعمل لأمرين:

أحدهما: أنّها تحسن الخطّ وتفخّمه في مكانٍ كما يحسّنُ مدُّ الصوت اللفظ ويفخمه في مكان.

والآخر: أنّها ربّما وقعت في الحرف لتتمّم السطر إذا فضل منه مالا يتسع لحرف آخر، لأن السطر ربّما ضاق عن كلمتين وفضل عن كلمة فتمدّ التي وقعت في آخر السطر لتقع الأخرى في أول السطر الذي يليه.

ويجب للكاتب أنْ يعرف أحكامها لئلايوقعها في غير المواضع اللائقة بها فيشتبه الحرف بغيره ويفسدُ المعنى، مثل أن يوقع المدّ (٣٣١) في (متعلم) بين الميم والتاء فتشتبه بـ(مستعلم) أو في (متسلم) فتشتبه بـ(مستسلم). وبالجملة فلا تخلو الكلمة الاصلية،

www.dorat-ghawas.com

سواء كانت اسماً او فعلاً أو حرفاً، من أن تكون ثنائية <أو ثلاثية> أو رباعية أو خماسية.

فالثنائية ثلاثة أضرب: أسماء مضاعفة وأفعال وحروف. فالأسماء نحو: برّ وضرّ وسرّ وشرّ وطلّ وظلّ وحلّ وقلّ. والافعال نحو: قلّ وكلّ وعُدْ وقمْ ونمْ وسِرْ، وجميع هذه لايحسن المدّ في شيْ منها إلاّ في سر وشر، لانّ السين والشين وإن كان كلّ منهما حرفاً فإنّه في صورة ثلاثة أحرف، وقد يحسن مدّ طل وظل في بعض المواضع. والحروف نحو: هل وبل وقطْ ومذ وعن ولو ولم ومن وما، وهذه لايحسن المدّ في شيْ منها.

وأمّا الثلاثية فالمدُّ فيها على الأكثر قبيح، لأنّها لاتنقسم قسمين متساويين، ومنها مايتسمح في مدّه للضرورة، وذلك إذا وقع في آخر سطر يحتاج الى التتميم، نحو: بيع وقطع، وينبغي أنْ يُقدّم الحرفان الأولان ويُوقع المدّة بينهما وبين الثالث. وأمّا الذي لايحتمل المدّ البتة فنحو: عسى ومتى وفتى وماأشبههما.

وأمّا الرباعية فإنها لانقسامها قسمين متساويين يحسن فيها المدّ، نحو: محمد وجعفر. ولا يجوز أنْ يُقدّم فيها ثلاثة أحرف ويُوقع المدة بينها وبين الحرف الرابع، ولا بالعكس، بل يُوقعُ المدّ بين الحرفين الأولين والحرفين الأخيرين، على أنّ منهما مالا يحسن المدّ فيه نحو: تغلب ومطلب وحبيب وقمبر.

وأمّا الخماسية فإنّ المدّ فيها لايحسن أيضاً كما لايحسن في الثلاثية، لأنّها لاتنقسم قسمين (٣٣٢) متساويين، فإنْ وقعت ضرورةً الى ايقاع المدّ فيها فإنّ الأحسن أنْ يُقدّم حرفان ويُوقع المدّ بينهما وبين الثلاثة الأحرف الأخر، نحو: مشتمل ومستقل ومسيطر[٣] ومهيمن.

ويقبح المدّ فيما جاء من الأسماء والأفعال والحروف موصولاً بمضمر، نحو: كتابه وثوبه وكتبتُه وعلمتُه وفيه ومنه وإليه، وذلك إذا وقعت المدّة بين تمام العلة[٤] والصلة.

ومشق السين يحسّن الخطّ في بعض المواضع، ويقبح إذا وقعت طرفاً نحو مشق السين في الناس والحواس، وأقبح من هذا مشقها إذا كانت موصولة بحرف واحد يتقدمها، نحو: بائس وعابس وحابس وناعس.

وإذا توالت سينان أو سين وشين فالأحسن أنْ يفصل بينهما بمدّة لطيفة، نحو: رَشَّتْ وعَشَّتْ ومَسَّتْ، وأنْ تمشق إحداهما وتحقق الأخرى في الخطّ المطلق.

ويقبح أن تُكتب ياءان معطوفتان متقاربتان في سطر واحد، وأنْ تمشق الكاف إذا وقعت في آخر الكلمة، نحو: منك وعنك وعليك.

وإذا توالت في <الكلمة> ثلاثة أحرف من الياء والتاء والثاء والنون فيجب أنْ يرفع الأوسط منها لئلا يتصحف بالسين أو بالشين.

وإذا اقترن منهما حرفان في الكلمة وبعدهما زاي أو راء أو سين أو شين رفع الثاني منهما، نحو: بئر وبئس.

فإن وليهما غير هذه الحروف سوّى بين الأول والثاني، نحو: بيْع وبتلو وبيداء وبيضاء، وكذلك يرفع الثاني منهما إذا وليتهما هذه الحروف وهما في خلال الكلمة وقد تقدّمهما أيّ حرف كان مما يوصل بهما نحو: عنترة وعنبسة، ويسوّى بينهما إذا وليهما غير هذه الحروف وهما في خلال الكلمة وقد تقدّمهما (٣٣٣) أي حرف كان، نحو: عتبة وطيبة وصنيع ومنيع.

ومن الرسم المستحسن أنواع المدّ في أسماء العظماء إذا احتملت ذلك لتقع العينُ عليها من غير طلب ولاتتبع تفخيماً لأقدارهم ولاسيما في العنوانات، وهذا مما يتناسب فيه الخطّ واللفظ.

وأمّا تصحيحُ الهجاء فأمر لازم علمه، وينبغي للكاتب أنْ يعرف اصوله والاصطلاح الجائز فيه ليعمل عليه فإن العدول عنه مستقل، والاصطلاح المحدث الغير جائز[٥] ليجتنبه فإن العمل به مستقبح.

وليس حكم خطأ الهجاء كالحكم في إفساد ترتيب الخطّ، لأن الخط إذا استحال ترتيبه فإنما تسقط رتبته حسب، وهو نظير مايقع في اللفظ من سوء منطق المتكلم وخشونة مخارج ألفاظه، والخلل الواقع في الهجاء فإنما هو لحن الخط المشابه للحن اللفظ.

www.dorat-ghawas.com

ولو رُتّب الهجاء في الخط على الامر الطبيعي دون الاصطلاحي لوجب أنْ يكتب بحروف على حكم الصوت الواقع في السمع، وذلك أنّ لكل حرف مخرجاً من المخارج مخصوص به، ولذلك الحرف رسم من رسوم الهجاء، فلو ردّ الأمر في حروف الهجاء الى اتباع مايقع في السمع لسهُل، لكنهم اصطلحوا على كتبْ الصلاة والحياة والزكاة بالواو وزادوا في (عَمْرو) واواً[1]، ونحو ذلك مما يخرج عمّا يوجبه السمع في الحروف ولسنا نحتاج أنْ نذكر أحكام الهجاء والمصطلح عليه منها لأنها موجودة في مظانها، وقد استوفينا القول عليها أيضاً في كتابنا الموسوم له بـ (آلة الكُتّاب).

وفي العربية حروف متشابهة داعية الى (٣٣٤) تصحيف الخطّ وإشكاله، ولأجلها احتج الى إعجامه، وفيه حركات أخلّ واضعُها بوضع صور لها فاغتيض منها بالشكل الذي هو علامات الرفع والنصب والخفض.

والبصريون يرون أنّ واضع الخطّ العربي أغفل صورة الهمزة، وقد كان يجب أنْ يؤتى بها وهي تقع في موضع الضمير، فجعلها الكوفيون واواً، وفي موضع يجعلونها ألفاً، وفي موضع الرفع واواً، وفي موضع الخفض ياءً، مثل: هذا جزوٌ، ورأيتُ جزءاً، ومررتُ بجزئٍ.

والبصريون ينكرون إثباتها في مثل هذه المواضع، ويستقبحون أنْ يكون لحرف واحد ثلاث صور فيسقطونها ويثبتون شكلة الهمزة وحدها في الأماكن الثلاثة ويعربونها بما يقتضيه موضعها.

فهذا مايجب أنْ يعرفه الكاتب في تحسين الخطّ وتصحيحه وتحقيق حروف هجائه. وتتبعه آداب أُخر، منها ما يدلّ على مهارة الكاتب وتبريزه في صناعة التخطيط، ومنها مايزيد في حُسن الخط ورونقه.

فأمّا التي تدل على مهارة الكاتب فسُرعة اليد في التشكيل والتصوير مع مراعاة التحقيق والتحري، حتى يكون إذا كتب كأنه يمسحُ عرض القرطاس مَسْحاً ويمدّ السطر مدّاً، وبمجانبة عادة الوراقين والمصوّرين في الابطاء والاستزانة فإن سرعة اليدِ في الخط من أفضل صفاتالخطاطين، كما أنّ ذلاقة المنطق بالعبارة من أفضل صفات البلغاء. ولذلك قال بعضهم وقد سُئل: ماالبلاغة؟ فقال: أن نقول فلا نُخطئ ونسرع فلا نبطئ.

ومن المطرّد في سائر الصناعات أنّ الصُنعَ (٣٣٥) الماهر هو السريع في عمله وأنّ العاجز المُقصّر هو الأخرق البطئ.

وأمّا مايزيدفي حسن الخطّ فالمقارنة بين حروفه والمباعدة بين سطوره مع صحتها واستقامتها، فإن يسير الميل الداخل عليها يُقبّح الخطّ ويكسف نوره ولاسيما خطوط النساخ، إلا أنّ الكتّاب قد وقع بينهم اصطلاح حادث على رفع أواخر السطور عن اوائلها. والرسم الأخر الأفضل ان تعتدل سطور الخط وتتناسق تناسق أغراس النخل والشجر والبناء. فعلى هذا كانت العادة جارية في ترتيب الخطوط القديمة.

ولفضل الخط المسطر ذكره الله تعالى في كتابه فقال:

«والطور وكتابٍ مسطورٍ في رقٍّ منشورٍ»[2]. وقال:

«ن والقلَمِ ومايسطرون»[3].

وفيما أوردناه من معرفة أحكام الخطّ ورسومه كفاية وبلاغ ونحن لذلك نتعدّاه الى ماسواه بمعونة الله.

قول في ترتيب الصدور:

المكاتبة العامة على ثلاثة أضرب:

من رئيس الى مرؤوس، ومن نظير الى نظير، ومن مرؤوس الى رئيس.

فالرؤساء: الخلفاء وولاة العهود والوزراء. فإن كانت المُكاتبة من الخليفة فينبغي للكاتب أنْ يفصل من الدّرج قدر ذراع، ثم يستفتح بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) في سطر اول، لانها أوّل مايجب أنْ يفتتح به. وأوّل مَن افتتح بها رسول الله، صلّى الله عليه

www.dorat-ghawas.com

وسلم، وكان يستفتح بـ: باسمك اللهم، الى أنْ نزل «بسم الله مجراها ومرساها»[1] فاستفتح بسم الله، الى أنْ نزل: «قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن»[2]، فاستفتح باسم الله الرحمن، الى أنْ نزلت: «إنه من سُليمان وإنه (٣٣٦) بسم الله الرحمن الرحيم»[3]. ثمّ يكتب في سطر ثانٍ يلاصقها ويخرج عنها يسيراً: (من عبد الله وليه فلان أبي فلان). وقد رأى قوم تقديم الكنية على الاسم، والمعمول عليه اليوم ماذكرناه. ويذكر نعته: (أمير المؤمنين الى فلان بن فلان). ويبدأ بذكر نعمته إن كان الإمام شرّفه بنعت: (سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أنْ يصلي على جدّه محمد خاتم النبيين وسيّد المرسلين صلّى الله عليه وعلى آله الأئمة المهديين وسلّم تسليماً).

وكان التصدير انتهى الى قوله: إني أحمدُ إليك الله الذي لا إله <إلّا> هو. فزاد فيه المأمون الصلاة على رسول الله، صلى الله عليه وسلّم. فعمل بسنته مَنْ بعده.

ولم يكن أحد من الخلفاء يكتب بنحته حتى افتتح ذلك الأمين محمد بن هارون، فاقتفى مَنْ تبعه أثرَهُ واستمروا على ماقرّره، فيكون هذا التصدير في سطرين يجعل بينها فضاءً قدر شبر ولا يزيده عن ذلك ولاينقصه فيخرجه عن حدّه، ثم يترك بعد هذين السطرين فضاءً يضعف الذي بينها، ثم يقول: (أمّا بَعْدُ). وقيل[4]: إنّ أوّل مَنْ كتب بها سليمان بن داود، عليهما السلام، واستنّ سُنّته فيها قُسّ بن ساعدة الإيادي[5]. ويقتضي المعاني معنىً معنىً، فإن كان أمراً أمَرَ به الإمامُ قال بعدَ انقضاء الكلام: (أمَرَ أميرُ المؤمنين بكذا وكذا). ثمّ يقول بعد فصل أوسع من الفصل الاول: (فاعلمْ ذلك من أمر أمير المؤمنين ورسمه، واعملْ عليه بحسبه). ويقول للمخاطبين من الطبقة العالية: (والسلام عليك ورحمة (٣٣٧) الله وبركاته)، ويفرد بالسلام من دونها وقل في أول الكتاب: سلام، وفي آخره: السلام، لأنّ الأوّل مبتدأ به وجارٍ مجرى النكرة، والثاني مشارٌ به الى الأول فصار شبيهاً بالمعرفة، وقدّم السلام على الرحمة، لأن السلام يتصرف على وجوه[6]:

منها: أنّه اسمٌ من أسماء الله تعالى.

ومنها: أنّه الجنّة في قوله سبحانه: «لهم دارُ السلام عند ربّهم»[7]، وهو في هذا الموضع من السلام والسلامة.

وتقديم السلام الذي يكون في الدنيا أولى من تقديم الرحمة التي تكون في الآخرة.

وقد كانت العامة جارية أنْ يُقال في آخر الكتب النافذة عن الإمام: (وكتب فلان بن فلان) باسم الوزير واسم أبيه. وقد بطل هذا الرسم في الدولة العلوية.

ولايكتب عن أحد بالتصدير إلّا عن الإمام وولي عهده. وهذه المكاتبة عامة للناس جميعاً في الأمور السلطانية التي تُنشأ فيها الكتب من الدواوين.

ولا يخاطب أحد عن الخليفة إلا بالكاف، وقد يُخاطب الامام وزيره في المكاتبة الخاصة بما يرفعه فيه عن خطاب المكاتبة العامة الديوانية، ويُتصرف في ذلك ويُزاد ويُنقص على حسب لطافة محلّ الوزير ومنزلته من الفضل والجلالة.

وليست لهذه المكاتبة الخاصة حدود يُنتهى اليها ولا قوانين يُعتمد عليها، وطريقها من الرئيس الى المرؤوس، ومن المرؤوس الى الرئيس مستيقظة معلومة.

وإن كانت المكاتبة من الوزير الى مَنْ دونه فإنها بغير تصدير، إلّا أنّ الخطاب يجب أن يبنى فيها على أقدار المخاطبين ومراتبهم في الدولة.

وأمّا مكاتبة النظراء فليست لهم رسوم محصلة، ولا مثل محدّدة، وإنما تكون على حسب الاختيار والخصوص والصموم (٣٣٨) في الحال، وما يتقارضونه من المكارمة ويتفاوضونه[8] من المجاملة.

وأمّا مكاتبة المرؤوسين الى الرؤساء فهي إمّا الى الإمام أو وليّ عهده أو وزيره أو قائده او قاضٍ أو صاحب ديوان أو عامل، ومن يلحق بهذه الطبقة.

فإن كانت الى الإمام فالرسم المعتاد في الدولة العلوية أنْ يُقال بعد البسملة: (أفضل صلوات الله وبركاته، وأشرف رضوانه

www.dorat-ghawas.com

وتحياته على مولانا وسيّدنا الإمام أمير المؤمنين، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين)، إن كان للإمام أبناء. فإن لم يكن له أبناء قيل مكان الأكرمين المنتظرين. ثمّ يُقال بعد فضله وسمو: (كتب عند الموقف النبوي خلّد الله ملكه من مقرّ خدمته بناحية كذا يوم كذا، وأمور ماعلق به وره الى خبره متظمة لسعادة مولانا أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى جدّه، والحمدُ لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيدنا وعلى آله الطاهرين وسلّم تسليماً)، ثمّ يُقال: (العبد ينهي كذا وكذا)، ويُفيض الأغراض التي بُني الكتاب على إنهائها وشرح حالها.

فإن كان الكتاب مبنيّاً على المطالعة ببعض الأخبار قيل في آخره بعد فضله يسير: (أنهى العبدُ ذلك ليستقرّ علمُهُ بالموقف الأشرف إن شاء الله).

وإنْ كان مبنيّاً على الاستمرار في بعض الأحوال قيل في هذا الموضع: (ولمولانا أمير المؤمنين، صلّى الله عليه، والرأي العالي في ذلك إن شاء الله).

وهذا ترتيب يعمل عليه الكبير والصغير في المكاتبات العامة والخاصة.

فأما المستعمل في الدولة العباسية فأنْ يُقال: (العبد الله فلان أبي فلان الكذا) بنحته (٣٣٩) أمير المؤمنين (من فلان بن فلان).

وإن كانت المكاتبة الى الوزير قيل في أوّل الكتاب: (كتب عند حضرة الوزارة السامية الأجلّية، أو خادمها أو صنيعها أو مملوكها) على حسب منازل المكاتبين، ويذكر نعوته. ثمّ يُقال: (من مقرّ خدمته بموضع كذا يومَ كذا، والأحوال مقبلة بسعادة الدولة الزاهرة وتمّ نظر حضرة الوزارة السامية، وحَسُنَ تدبيرها، جارية على السّداد، منتظمة في سلك الاستقامة والاطراد، والحمدُ لله وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلّم).

ثمّ يأتي على الأغراض التي[13] يتضمنها الكتاب، ثمّ يختم بما يليق بالمعنى في فصول الختم.

فأما من تلا[14] الوزير من الرؤساء فإنهم ينزلون في المكاتبات على حسب أقدارهم.

قول في العنوان

العنوان كالعلامة، وهو دالّ على مرتبة الكاتب من المكاتب فالأصل فيه الإخبار عن اسمي الكاتب والمكتوب اليه حتى لايكون الكتاب مجهولاً.

وفيه لغات[15]: يُقال: عُنوان وعُلوان، وعَنْوَنْتُ وعَلْوَنْتُ وعنّنت، والجمع: عناوين وعلاوين. فالعنوان من عنّ يعنّ إذا بدا، والعلوان من العلانية، لأنّه خيطٌ ظاهر على الكتاب. والنون واللام متعاقبان احداهما مكان الأخرى، ومثله كثير في كلام العرب.

وكان الاصل ان يبتدئ باسم الكاتب، ثم يثني باسم المكتوب إليه، وهو الترتيب الذي تشهد به العقول، لأنّ نفوذ الكتاب الى المكتوب كنَشْءِ الشيْ وخروجه من ابتداء الى نهاية، فابتداؤه من الكاتب وانتهاؤه الى المكتوب إليه، (٣٤٠) ولفظة (من) تتقدّم لفظة (إلى) بالطبع، لأن (من) حرف يُبنى على منشأ الشيْ و(إلى) حرف يخبر عن النهاية التي عندها قرار الشيْ، والابتداءات في الأشياء مثل النهايات. وعلى هذا كانت كتب رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، ومَنْ سلف من الأمم الماضية، ثمّ عرض للناس رأي في تغيير هذا الرسم الى غيره، وهو أنّهم فرقوا بين مرتبتي المتكاتبين من الرؤساء والعظماء والخدم والأتباع بتقديم اسم المكتوب اليه إذا قصدوا إعظامه وإجلاله، وتأخير اسمه إذا أرادوا الإبانة عن إيضاع مرتبته عن مرتبة الكاتب اليه. ولحُسْنِ مارأوه من هذا التدبير اتبعوا عليه وتُرك الأصل الأقدم وإن كان هو الصواب الصحيح. ولم يزل الناس يتكاتبون بأسمائهم الى أنْ ولي عمر بن الخطاب فتسمى بأمير المؤمنين[16] وكتب: (من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب). ثم وقع الاصطلاح على مكاتبة الرؤساء والنظراء بالكنى، والمرؤوسين والاتباع بالأسماء. ثم تغيّر هذا الرسم أيضاً.

وكان المأمون يكتب في أوّل عنوانات كتبه: (بسم الله الرحمن الرحيم)، وهو أوّل مَنْ فعل ذلك[17]. واستمر العمل به بعده مُدّيدة ثمّ بطل.

www.dorat-ghawas.com

وأوّلُ مَنْ أكتنى من الخلفاء وجلّلَ الخطّ وعظّم الكتب وجوّد القراطيس الوليد بن عبد الملك، وقال: لا أُكاتب الناس بمثل مايكاتب به بعضهم بعضاً. فجرت السنّة بذلك إلاّ في أيّام عمر بن عبد العزيز ويزيد الكامل(٣٤١) فإنهما عملا بما كان الأمرُ جارياً عليه أوّلاً، فلمّا ولي مروان بن محمد ردّ الأمر الى ماأحدثه الوليد.

والذي تُعَنْوَنُ به الكتب عن الأئمة (٣٤١) العلويين، عليهم السلام: (من عبد الله ووليّه فلان أبي فلان الإمام الكذا أمير المؤمنين)، وذلك في الجانب الأيمن من جهة الطنبة وفي الجانب الأيسر: (الى فلان بن فلان) فإن كان المكاتب ممن ينعت ويكنّى بدأ بنعته ثمّ بكنيته ثمّ باسمه واسم أبيه.

هذا هو الرسم الذي تُعَنْوَن به الكتب النافذة الى الطبقة العليا. فأمّا الطبقة السفلى فإنما تعنون الكتب النافذة إليها بأنْ يُقال في الجانب الأيسر: (الى فلان بن فلان).

فأمّا ماتُعَنْون به كتب الوزير فبأنْ يُقال في الجانب الأيمن من جانبي الطنبة: (الأمير فلان). يبدأ بالإمارة ثمّ بالنعت إن كان مؤمّراً منعوتاً. وكذلك الحكم فيمن يخاطب بالشيخ وبالقاضي في الجانب الأيسر من الوزير، ويذكر نعوته وكنيته واسمه. هذا إنْ كان المكتوب إليه من الأعالي، فإنْ كان المكتوب اليه من الأسفل قيل في الجانب الأيسر: (لفلان بن فلان).

فأمّا مايُعنون به من دون الى من فوق، فإنّ كان الكتاب الى الإمام قيل في الجانب الأيسر: (عبد مولانا وسيّدنا الإمام الكذا أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين). فيكون هذا في سطرين، ثمّ يُقال بعده بفضاء يسير: (ومملوكه فلان بن فلان).

وإنْ كان منعوتاً وقد شرّف بأنْ يُكاتب بنعته ذُكر نعته. ولايُكنّى أحد على الخليفة، وإنْ جلّ قدره، إلاّ إنْ شرّفه بذلك.

والسبب في إثبات النعت في مكاتبه الخلفاء وحذف الكُنية أنّ النعت تكرمة لاتحصل لمن أُكرم بها إلاّ عن الخليفة، فإذا خاطبه بها كان الحكم (٣٤٢) في مرورها على سمعه حكم غيرها من نعمه عند صنائعه إذا مرّت على طرفه، والكنية تكرمة يتفاوضها الناس فيما بينهم، فلايجوز خطاب الخلفاء بها مالم يمضوها ويضيفوا نفاذ المخاطبة بها الى ضروب عوارفهم وأياديهم.

والرسم الذي كان يستعمل قديماً أنْ يُقال في الجانب الأيمن:(لعبد الله فلان أبي فلان الكذا أمير المؤمنين)، وفي الجانب الأيسر (من فلان بن فلان).

وإنْ كان الكتاب الى الوزير عن الطبقة العالية قيل في الجانب الأيمن: (حضرة سيدنا الوزير الأجل) ويذكر نعوته، وفي الجانب الأيسر: (خادمه أو صنيعه أو وليه فلان بن فلان) ويذكر النعت والكنية إنْ كان مكنّى.

وإنْ كان عن الطبقة السافلة قيل في الجانب الأيسر: (عبد حضرة الوزارة السامية الأجلية) ويستوفي الترتيب المقدّم، ثم يُقال بعده بفضاء يسير: (فلان بن فلان).

والرسم المستعمل قديماً في عنوانات الكتب الصادرة الى الخلفاء.

فأمّا عنوانات الكتب الواقعة من النظراء فإنّها مبنية على حسب مايرونه من النوادر والتكارم.

فأمّا عنوانات الخرائط السلطانية فيوقع عليها: (يعجّل بها الى فلان بن فلان إن شاء الله)، وفي الجانب الأيسر: (من مستقرّه بموضع كذا). وقد كانوا يحلّقون على الخرائط ويبلغون بها العِدّة ماتقتضيه طبقة الأمر الذي صدرت فيه.

وأوّل الطبقات خمس حلقات ثمّ سبع ثمّ تسع ثمّ إحدى عشرة، ثمّ تُزاد اثنتين اثنتين حتى تبلغ احدى (٣٤٣) وعشرين حلقة. وهذا الرسم قد بطل اليوم.

وقد اصطلحوا على تعريف الكاتب نفسه والنسبة إليها قبل تسميتها، وذلك قولهم: (لسيدي فلان)، وهو خطأ، إلاّ أنّ الخروج من الاصطلاح مستثقل، وهو داخل فيما اصطلح عليه من الغلط الواقع في الهجاء وكتبة المصاحف ولابّد من المتابعة فيه.

قول في الدعاء

عرض في الدعاء مَنْ يغيّره عن رسمه الأوّل مثل ماعرض في العنوان من وجهين:

www.dorat-ghawas.com

أحدهما: تكثير ألفاظ الدعاء.

والآخر: تبديل معانيه.

فأمّا ماعرض من تكثير ألفاظه فإنّ الرسم كان في دعاء العنوان أنْ يكون بلفظةٍ واحدةٍ لايُثنّى ولا يُثلّث، كقولك: (أطال الله بقاءه) فرقاً بينه وبين دعاء الصّدر، فزادوا[٣٣] في دعاء العنوان حتى لحق بدعاء الصّدر.

وأمّا ماعرض من تبديل معانيه فإنّ الأدعية التي كانت تستعمل كانت شبيهة بأمر الدين، مثل قولك: أكرمه الله وحفظه ووفّقه وحاطه ومااشبه ذلك، فعُدل عنها لقصد الإجلال والإعظام الى الدعاء بإطالة البقاء وإدامة العزّ وإسباغ النعمة، ونحو هذا مما يتنافس فيه أبناء الدنيا.

وحملوا الأمر في الأدعية على عادات ملوك الفرس، فجعلوا أوّل مراتب الدعاء إطالة البقاء ثمّ إطالة العمر، والفرق بينهما أنّ البقاء لايدلّ على مدّة تنقضي لأنّه ضدّ الفناء، والعمر يدلّ على مدّة تنقضي، ولذلك يُوصف الله تعالى (٣٤٤) بالبقاء ولا يوصف بالعمر. ومن هنا اقتُصر[٣٤] على الدعاء للخلفاء بإطالة البقاء وجُعل مايليه لمَنْ دونهم. ويتلوه الدعاء بالمدّ في العمر، لأنّ الوصف بتطويل الزمان أبلغ من الوصف بالمدّ فيه، فإنّك تقول: مدّة طويلة ومدّة قصيرة فيتعاورها الطول والقِصَر، ولهذا صارت مرتبة الطول أقرب الى مرتبة البقاء. ثمّ لايزال الدعاء ينحطّ في المراتب حتى ينتهي الى دعاء واحد في الصّدر دون العنوان، نحو: أعزّه الله، وسلّمه الله.

وكانت عادتهم جارية بأنْ يجتنبوا من الأدعية مالا محصول له، كقولهم: (جعلني الله فداءك، وقدّمني الى السوء دونك) لما في ذلك من التصنّع والمَلَق الذي لايرضاه السلطان لأنّ نفس الداعي لاتسخو باستجابته. وإنّما يحسن ذلك من الخواص الذين يتحققون أنّ بقاءهم معدوق ببقاء رؤسائهم، وثبات نعمهم مقرون بثبات أيام سلاطينهم، لأنّه يصدر عن عقائد مستحكمة في بذل الأنفس دونهم، كالذي كان يعتمده أصحاب رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم ورضي عنهم، من قول أحدهم له: (أفديك بنفسي يارسول الله، وبأبي أنت وأُمّي ولم يكن يرتاب بضمائرهم، لأنّه لو احتاج الى أنْ يفدوه لم يرغبوا بنفوسهم عن نفسه. فإن سلك سالك هذه السبيل فليقدّم في صدر الكتاب من الأدعية مالاشك في سروره باستجابته، ثمّ يشفعه بهذا وأشكاله.

وينبغي أنْ تكون الأدعية دالّة على مقاصد الكتّاب، فإنْ كان في الهناء تأرّجت بعَرْفه، وإنْ كان في العزاء كانت مشتقة من وصفه. (٣٤٥) وكذلك سائر فنون المكاتبات، لأنّه لايحسن أنْ يُبنى الخطاب على الذمّ والتوبيخ والموجدة والسخط، ثمّ يفتتح الكتاب بالدعاء الذي يليق بمن يُحمد ويُشكر ويُرضى فعله، لأنّ ذلك تخليطٌ، ويخالف بينها في فصول الكتاب، ولايوالي بين اثنين منها، ولايركب بعضها على بعض، مثل أنْ يقال: فلا أخلى الله الأمير، أيّده الله، من عطاياه الجسيمة وحرس الله الامير أعزّه الله، ونحو هذا، فإنه مما يستقبحه الكتاب جدّاً، وإذا ذُكر الرئيس مجرّداً دعا له فقال: وقد أنهيتُ الى سيّدي أيّده الله كذا، فإذا ذكره مع غيره فقال: وقد كان من عدوّ سيدي كذا، لم يدعُ له، لأنّه يحتمل المعنيين.

فأمّا أدعية الصدور فإنهم يستقبحون أنْ تخرج عن سطرين.

وأمّا أدعية العنوان فإنها من واحد الى ستة ولا تزاد على. . .[٣٥].

وأمّا ترتيب الأدعية فليست له قوانين تحصره، إلّا أنّ المستعمل في المكاتبات الصادرة عن الخلفاء ألّا يُدعى لأحد من كبير ولا صغير في التصدير، وأنْ يقرن الدعاء المرسوم لكلّ من المخاطبين باسمه في العنوان حسب.

وأمّا كتب الوزراء فتتضمن صدورها وعنواناتها من الأدعية مايليق بالمكاتبين وتوجيه مراتب المخاطبين.

وأمّا النظراء فيدعو بعضهم لبعض بالأدعية التي يقتضيها ماترويه من التناصف في المعاشرة.

فأمّا المرؤوسون فإن كانت كتبهم الى الأئمة فإن الذي يتضمنه من الدعاء هوما اشتمل عليه التصدير الذي ذكرناه من الصلوات والرحمة والتحيات والسلام والبركات ومايجري (٣٤٦) هذا المجرى.

www.dorat-ghawas.com

وحكم العنوان حكم الصدر أيضاً. هذا هو الرسم المستعمل في مخاطبة الأئمة الطاهرين. فأمّا المستعمل في مخاطبة غيرهم فالدعاء بإطالة البقاء وسبوغ النعماء ودوام السلطان، وقد يدعى لهم أيضاً بمثل ما ذكرناه من الصلاة والرحمة.

وإن كانت الكتب الى الوزراء فإن العادة جارية أن يضمّن التصدير مايليق بجلالة المكاتبهم من الأدعية ويقتصر بهم في العنوان على دعاء واحد، نحو الدعاء بدوام الايام وعلو السلطان وما شاكلهما.

وإن كانت الكتب الى غيرهم من الرؤساء دعا لكلّ منهم بما توجبه رتبته.

وقد كانوا يختارون في الدعاء للآباء: (أبقاك الله وأكرمك) وللابن: أبقاك الله وأصلح بك).

ولا يستحسنون الدعاء للاخوان بالامتاع، ولذلك كتب عبد الله بن طاهر[٣٦] الى محمد بن عبد الملك الزيات[٣٧] يعاتبه على مخاطبته بـ (أمتع الله بك):

أحلْتَ صبًا هِمتَ من لحظه ... لم يَلْتَ مُلكاً فهمتَ في الفلكْ
أتعبتَ كفّيكَ من مكاتبتي ... حسبُكَ ما يكتبهُ في الحسكْ
إنّ جَفَاةَ كتابٍ في ثقةٍ ... يكرهُ في غيرهِ: وأمتع بكْ

فأجابه[٣٨] معتذراً:

كيفَ أخونُ الإخاءَ يا أملي ... وكلّ مَنْ أنتَ من سَبَبكْ
إنْ يكُ جهلٌ أتاكَ من قِبلي ... فمُذْ عقلتُ عقلتُ في أدبكْ

(٣٤٧) وقد استحسنت بقاء الكتاب طرفاً في الدعاء مستحسنة ذكرنا فيما في هذا الكتاب الأول، وسيمرّ[٣٩] في باب رسوم المكاتبات ما يستدلّ به على استحسان سنّتها، إن شاء الله تعالى.

فصل في التاريخ

تاريخ كلّ شيء: آخره، وهو في الوقت غايته والموضع الذي انتهى اليه، وهو مأخوذ من الخبر الدالّ عليه غرب عهد الكتاب وبُعده. ولكلّ ملّة وأهل مملكة تاريخ[٤٠].

وكانوا يؤرّخون بأوقات تحدث فيها حوادث مشهورة. ثمّ استقرّ تاريخ الروم منذ ولاية الاسكندر اليوناني. واستقرّ تاريخ الفرس منذ هلاك يزدجرد أحد ملوكهم. واستقرّ تاريخ القبط منذ ولاية دقلطيانوس أحد ملوكهم.

وكانت العرب تؤرخ بعام الغرق، وهو تفرّق ولد اسماعيل عن مكّة. ثمّ أرّخوا بعام الفجار، وله حديث. ثمّ أرّخوا بعام الفيل، وحديث الفيل مشهور، وقد أنبأ الله تعالى به في كتابه. ثمّ بالفجار، وهو وقت تفاخروا فيه واحلّوا أشياء كانوا يحرّمونها، وبينه وبين بناء الكعبة خمس عشرة سنة ثم استقرّ تاريخ العرب في الملّة الاسلامية من أوّل سني هجرة سيّدنا محمد، صلّى الله عليه وسلّم. وكان المبتدئ لهذا التاريخ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لأنّ عامله باليمن قدم عليه فقال: أما تؤرّخون كتبكم؟ فأراد عمر أنْ يؤرّخ بمبعث النبيّ، صلى الله عليه وسلّم، فقال[٤١]: بل نؤرّخ بوقت وفاته، ثمّ قال: بل بالهجرة لأنّها (٣٤٨) مبدأ الإسلام وأراد الابتداء بشهر رمضان، ثمّ تقرّر رأيه على المحرّم.

والتواريخ العربية على الليالي، لأنّ سني العرب قمرية، وتواريخ سائر الأمم على الأيام، لأنّ سنيهم شمسية.

والهلال يبدو في أوّل الليل، وإنّما يكتب: يوم كذا، يعرف اليوم بما يمضي من الليالي ويبقى. وأوّل ليلة يطلع الهلال يؤرّخ بالمستهلّ، لأنّ النهار لا يقال فيه: مستهلّ، إذ الاستهلال إنّما هو الليل. فأمّا مَنْ عدّ تلك الليلة فيقول: لليلة خلت. على أنّ قوله: مستهلّ وغيره أسهل من قولهم يوم كذا.

والعرب تسمّي أوّل ليلة من الشهر: النّحيرة[٤٢]، ولا يستعمله الكتّاب في التواريخ.

وإذا كان آخر الشهر يعتدّ بالليل وينقضي بانقضاء النهار وفي اليوم الخامس عشر يقال: انتصف من شهر كذا، فإذا كان قبله عُرف اليوم بالليالي الحواضي، وإذا كان بعده عُرف بالليالي البواقي، لأنّ الكتّاب قصدوا في التعريف بالعدد الأقلّ اختصاراً.

www.dorat-ghawas.com

والفقهاء ينكرون هذا ويؤرّخون بما مضى من الشهر كائناً ماكان من العدد، ويرون أن مايبقى من الشهر غير محصّل، لانّ الشهر مايُدرى أتامٌ هو أم ناقص وحجّة الكُتاب في هذا أنّهم يعملون على أنّ الشهر ثلاثون يوماً. فإذا ذكروا العدّة الماضية أو الباقية لم يكن عليهم تزيُّد.

والذي يعمل عليه اليوم بمصر أنْ يُجعل شهر ثلاثين يوماً وشهر تسعة وعشرين يوماً، فيجعل المحرّم تاماً وصفر ناقصاً ثمّ على ذلك الى آخر الشهور.

(٣٤٩) والرسم في الكتب الصادرة عن السلطان أن تؤرّخ في أعجازها وأواخرها، إلّا انْ يكون الكتاب في امر يحسُن الابتداء بذكره فيؤرخ في صدره باليوم، كالحوادث العظام والفتوحات والمواسم الدينية.

فامّا كتب الاتباع الى الرؤساء فإن الرسم انْ يؤرّخ في صدورها، ومثال ذلك انْ يُقال: (كتب العبدُ من مقرّ خدمته يوم كذا).

فصل في الختم

لم تزل ملوك العجم تختم كتبها احتياطاً على سرائرها، وصيانة لما يخفّ فيه من خزائم أمورها. وكان للفرس ديوان للخاتم تكتب فيه الكتب التي تختم بخاتم الملك لانّ له من الموقع مالبس لغيره مما يختم به.

وأوّل مَنْ استأنف ديوان الخاتم في الاسلام زياد بن أبيه[٣٧].

وروي أنّ كتب العرب لم تزل منشورة غير معنونة ولا مختومة حتى كتب عمرو بن هند للمتلمس[٣٨] الى عامله على البحرين يأمره فيه بقتله، فقرأه[٣٩] المتلمس فلم يوصله فختمت العرب بعد ذلك كُتبها.

وحُكي أنّ النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، كتب الى ملك الروم كتاباً ولم يختمه، فقيل له: إنّه لايقرؤه مالم يكن مختوماً، فاتخذ، عليه السلام، خاتماً ونقش على فصّه: (محمد رسول الله) وختم الكتاب. فصار الختمُ سُنّة. وانتقل هذا الخاتم الى أبي بكر، رضي الله عنه، فختم به كتبه مدّة خلافته. ثمّ انتقل الى عمر بن الخطّاب فختم به كتبه أيام خلافته. ثمّ انتقل الى عثمان بن عفّان فختم به النصف من مدّة خلافته، وبينا هو في يده (٣٥٠) وهو على المنبر إذ سقط من يده فطُلب فلم يُقدر عليه، فاتّخذ خاتماً ونقش عليه: (محمد رسول الله) في ثلاثة أسطر وختم به.

ورُوي أنّ أوّل مَنْ ختم الكتب سليمان بن داود، عليهما السلام.

وقيل في تفسير قوله تعالى: «إنّي أُلقِيَ إليّ كتابٌ كريم»[٤٠] أي مختوم.

والذي يجري عليه الأمر في الختم اليوم نذكره عند ذكرنا لديوان الخاتم، إنْ شاء الله تعالى.

الباب الثامن

في رسوم المكاتبات

هذا الباب هو موضع الثمرة والمجنى، ومكان الغرض والمغزى من الصناعة، وعليه مدارها وعنده تنقطع أفعال أهلها. وهو أهم مااضطلعوا به وألزم مامهروا فيه من أعمالها، لانّه لاشيْ أعود على الكاتب من تحصيله أمثلة مايكتب فيه وقيام رسومه في نفسه وتمكنه من التصرف فيها، ولاأقعد به من تعذرها عليه وحاجته الى انتساخها ونقلها مما رسمه في أضيق الأوقات مجالاً وأقلّها إمهالاً.

وقد أودعنا هذا الباب المثل والرسوم المستعملة في جميع المكاتبات بالقول الوجيز الجامع لحدودها وعقودها، إذ كان حصر جميع أنواع الترسيل في مُثُل تشتمل عليها ورسوم تقيّدها حتى لايبدو شيْ منها متعذراً. وأحسنا لذي الفكرة السليمة والغريزة المستقيمة مايقتفي آثاره ويقتبس أنواره، وأغنيناه بتقدمة (٣٥١) الاستعداد عن الفحص والارتياد فأتينا في الكتب المكتبة عن السلطان في الحوادث بجوامع تشتمل على أغراضها ومقاصدها والمعاني الواقعة فيها لتبسط وتوفى حقّها من الشرح والإبانة عند

www.dorat-ghawas.com

الحاجة الى استعمالها، وأتينا في كتب التقاليد والعهود بأمثلة تتضمن التصدير والأوامر التي جرت العادة أنْ يعهد بها السلطان لكلّ مَنْ يعمل عملاً من أعماله، لأنّها محصورة محدّدة لاعذر للكاتب في الإخلال بشيءٍ منها ليستوفيها على حقّها ويضعها في مواضعها، فإنّه إنْ أغفل بعضها سقطت الحجّة على العامل متى لم يعمل بها، وأتينا في المكاتبات المشتركة برقاع وفصول تطرق الطريق الى إنشاء مثلها. وهذا الفنّ من المكاتبات لايقف عند مدىً، وقد كان ينبغي أنْ نحيل في تعرّف رسومه على مطالعة ماأنشأه البلغاء فيه لكنّا تكفّلنا ماتكفلناه منه لئلا نكون قد أضربنا عن الأمر الأعمّ من الكتابة وإنْ كانت السلطانيات هي الأمر الأهمّ، لأنّها الكتب النافذة في جلائل الخطوب ومعاظم الأمور وسياسة الجمهور وقوام الدنيا ونظام الدين.

ولسنا ندّعي النفاذ في جميع ماأنشأناه من هذه الأنواع وأودعناه كتابنا، ولاأنّه بأسره مرضيٌّ لأنّه لايكاد يوجد كاتب مطبوع في تأليف الرسائل كلّها، كما لايوجد خطيب مطبوع في تأليف الخطب كلّها، لأنّ من الكُتّاب مَنْ يكون حاذقاً في الكتب السلطانية الصادرة في معاظم الأمور وجلائل الشؤون، ككُتب الهُدَن (٣٥٢) والفتوحات والعهود والتقاليد والاستبطاء والاعتذار والشكر والشكوى والتهادي دون غيرها من السلطانيات. وربّما تمهّر الواحد منهم في معنى دون معنى، كما يتمهّر في التقريظ والإحماد دون التوبيخ والاستقصاء ونحو ذلك.

ومن الخطباء مَنْ يكون حاذقاً في التحضيض، قويّ الحميّة والحفيظة في الوقائع ومقارعة الفرسان، مقصّراً في الإصلاح بين العشائر وإطفاء الثوائر. وربّما مَهَرَ في خطب الحمالات وتكلّف الديات دون غيرها من أنواع الخطب.

ومن الشعراء مَنْ يجلّ في المدح دون الهجاء، وفي المراثي دون الفخر وكذلك في سائر الأنواع. وهذا أمرٌ معلوم، والعِلّة فيه اختلاف الغرائز ومناسبتها للبعض دون البعض من الأمور.

وأيضاً فإنّ الذي يؤلف الكلام في حالٍ حاضرةٍ قد أحاط بصفتها وتمكّنت صورتها في نفسه أفسح مجالاً وأوضح سبيلاً ممن يؤلّف في الأمر المشاهد يستملي من نفس ذلك الأمر مايبني عليه تأليفه، وليس مَنْ أخذ صورة فجلاها كمن خلق الصورة وتكلّف تحليتها.

فإن وقع فيما اشتمل عليه هذا الباب تقصير في بعض الأنواع عمّا يستحقّه من القول أذا قيس بحال حاضرة فهو لهذا السبب، لأنّ جميع ماتضمنه مقتضب له لم يستعمل شيئاً في مخاطبة ولا مكاتبة.

وكلّ ماأتينا به من الأمثلة فلا ينبغي لمَنْ يروم احتذاءه وامتثال سببه أنْ يعوّل على نقل (٣٥٣) فصّه وأخذه على نصّه، لأنّ ذلك يفسد طبعه ويعوده عادات الاتكال على غيره، وإنّما يجب أنْ يمرّه على سمعه ليتدرب بالطريق المسلوكة إليه فيقتفيها، وإنْ علق بنفسه معنى من معانيه عرّاه من معرض لفظه وكساه لفظاً يحفظ صورته.

وهذا الباب لم نصنّفه لعالم ماهر ولاكاتب مبرّز كامل، وإنّما صنّفناه للمبتدئ تبصرة وللمنتهي تذكرة، والله الموفّق للصواب بفضله.

الذي يتصرّف فيه الكاتب من إنشاء المعاني ضربان[1]:

الأول: اقتضاب الرأي والتدبير في الأمور السلطانية التي ليست لها أمثلة محرّرة ترجع اليها ولا رسوم مقرّرة تعتمد عليها، وإنما هي مصالح تعمّ أمور الدين والدنيا، والسلطان محتاج الى تفقدها وإقرار منتظمها على نظامه، وإعادة المختل منها الى قوامه، والمكاتبة منها بما يقتضيه من أمر ونهي، ووعد ووعيد، وترغيب وترهيب، وحضّ على صلاح وكفّ عن فساد، وإبانة عن حميد عاقبة ودلالة على ذميم مغبّة.

وإنشاء هذا النوع من المعاني يتعلق بوزير السلطان الذي يصدر ويورد، وينقض ويبرم، ويحلّ ويعقد، ويقدّم ويؤخّر.

والمتولي لهذا العمل يفتقر في الاستقلال به الى حصول ثلاثة أشياء:

أولها: الفكرة المناسبة لهذا الأمر والهمّة المشابهة لهذا الرتبة، فإن اختيار الرأي وجودة التدبير قوة يحظى بها الواحد دون الواحد فيُعرف بها ويُنسَبُ إليها.

www.dorat-ghawas.com

والثاني: المعرفة بأحوال المملكة وبلادها ورجالها ورعيتها ومذاهبهم وسيرهم وعاداتهم ومايقومهم من رغبة ورهبة وبصائرهم من (٣٥٤) المعاملات المتضادّة ومايرجونه ويخافونه.

والثالث: حيازة فضل التجربة والاستدلال بتالد الأحوال على طارفها، وبسالف الخطوب على آنفها، لتشابه قضايا الأزمنة وتناسب عللها.

فمتى حصلت له هذه الأقسام اقتدر على نيل المرام، ووقف على منهج السداد في الاصدار والإيراد، وتوضّحت له مخايل الصواب وعُدَّ من سادة الكُتّاب.

والضرب الثاني: إنشاء الترتيب والعبارة. وهذا فإنما يسلم الأغراض الى متولي الترسيل محرّرة فيحسن التعبير عنها ويجلوها في أشفّ معارض الإبانة. وهو ينقسم الى قسمين:

القسم الأول: السلطانيات.

والقسم الثاني: الكتب المشتركات.

فالقسم الأول على ضربين: ‹الأول›: غير محتسب وغير مطروق، تنشأ الكتب فيه بحسب الحوادث فلا مثال له ولا رسم، والكاتب يقتدر على توفيته حقّه بأمرين:

أحدهما: الطبع الفاضل الذي في قدرته وضع الأشياء في حقائقها.

والثاني: المهارة في المعتاد والتدريب به لوقوع التناسب في الأمور.

والضرب الثاني: راتب متداول قد استقرت له رسوم معروفة ومُثُل مألوفة، وهو أربعة أنواع:

النوع الأول: المكاتبات في الحوادث المألوفة.

والنوع الثاني: التقاليد والعهود والمناشير والأمانات.

والنوع الثالث: التوقيعات.

والنوع الرابع: المكاتبات في أمور الخراج.

وقد مثلنا من هذه الأنواع مافيه كفاية، وغنىً لاهل الدراية.

* * *

(٣٥٥) القسم الاول من الترسيل: وهو السلطانيات

الضرب الثاني منه أربعة أنواع، رسوم النوع الأول منه، وهو الكتب في الحوادث المألوفة.

أغراض هذه الكُتُب:

الكتب في الدعاء الى الدين

الكتب في الحث على الجهاد

الكتب في الحضّ على الطاعة

الكتب بالتنبيه على مواسم العبادة

الكتب عند حدوث الآيات السماوية

الكتب في النهي عن التنازع في الدين

الكتب عن الخليفة عند انتقال الأمر إليه

الكتب في الهُدَن والعقود

الكتب الى مَنْ نكث عهده من المعاهدين

الكتب الى مَنْ خلع الطاعة

www.dorat-ghawas.com

(٣٥٦) الكتب بالتضييق على المجرمين
الكتب في الاعتذار عن السلطان
الكتب في الفتوح
الكتب في التوفقة بين السنين[1] الخراجية والهلالية
الكتب بالتنويه والتقليب
الكتب بالإحماد والإذمام
الكتب بالأوامر والنهي
الكتب في إلزام الذمة بالتغيير

الكتب في الدعاء الى الدين

أشرفُ[2] مايُنشئه المترسلُ الدعاء الى دين الاسلام الذي أظهر الله تعالى على كلّ دين، وأعزهُ على كُره المشركين واستجرار مخالفيه اليه واجتذاب الخارجين عن دائرته الى الدخول فيه، عملاً بما كان عليه رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، والخلفاء من بعده، لأنّه قوام الملك ونظام السلطان اللذان[3] لايصحان إلاّ به.

والكاتب يحتاج في إنشاء هذه الكتب الى علمِ التوحيدِ وبراهينِه، وشَرْعِ الرسولِ، صلّى الله عليه وسلّم، خاصّه وعامّه ومعجزاته وآيات نبوّته، ليتوسّع في الإبانة عن ظهور حجّته ووضوح محجّته.

والرسم فيها أنْ تُفتتح بحمد الله الذي اختار دين الإسلام فأعلاه وأظهره وقدّسه وطهّره، وجعله (٣٥٧) سبيلاً الى رضاه وكرامته وطريقاً الى الزّلفى في جنّته، وشفيعاً لايُقبل عمل عامل إلاّ به، وباباً لايصل واصلٌ إلاّ منه، فلا تغفر السيّئات الا لمن اعتصم بحبله ولا تتقبّل الحسنات إلاّ من اهله، وشكره تعالى على الهداية إليه والتوقف عليه، وزيادته من جاهل الضلالة بما أوضحه من برهانه ونوّره من بيانه، وتمجيله بعظيم آياته وباهر معجزاته، وحكيم صنعته وبديع فطرته، وتنزيهه عما لايليق بسلطانه ولا إضافته الى عظيم شأنه، وتسبيحه عما يصفه الملحدون ويختلقه الجاحدون، والصلاة على رسوله محمد، صلّى الله عليه وسلّم، والإفصاح عن دليل نبوته وبراهين رسالته، ومامخصّه الله تعالى به من إعلاء ذكره وإمداده بالمعجزات الرافعة للاعذار في أمره. ثمّ يشفع ذلك بالدعاء الى الدين والحضّ عليه، وإيضاح مافي التمسك به من الرشاد في دارَي المبدأ والمعاد، والتبشير بما وعد الله [به] المستجيبين له والداخلين فيه[4]، من تمحيص السيّئات ومضاعفة الحسنات، وعزّ الدنيا وفوز الأخرة، والإنذار بما أوعد به الناكبين عن سبيله العادلين عن دليله، من الإذلال في هذه الدار والتخليد يوم العرض عليه في النار، وتصريف المخالفين بين الرغبة والرهبة في العاجل والمغبّة.

وينبغي أنْ يتأنّى الكاتب فيما يورده من هذه الأغراض ليقع في المواقع اللائقة به، ويجلو الحجج في أحسن المعاريض، ويفصح عنها بأقرب الألفاظ من النفوس، فإنّه إذا وُفّق لذلك ناب كتابه مناب الجيوش والأجناد وأقرّ السيوف في الأغماد، ومن صدقت في هذا الفن (٣٥٨) نيته أيّد الله غريزته وعضد بديهته ورويّته.

الكتب في الحثّ على الجهاد

الدّين ينتظم بأمرين:
أحدهما: الدعاء اليه والترغيب فيه.
والثاني صيانة حوزته ومادخل في مملكته، وكفّ أعدائه عن تنقّص أطرافه والتغلب على بلاده.
ولهذا فرض الله الجهاد وأوجبه، وأكّد الأمر فيه وشدّده والسلطان محتاج عند الحوادث التي تحدث من تطرُّق المخالفين الى بعض الثغور أو شنّ الغارة على أهل الإسلام، أنْ يدعو إلى الجهاد ومقارعة الأعداء، وصون حريم الملّة وحفظ نظام الدولة والرسم فيها أنْ يُفتتح بحمد الله تعالى على جميل صنعه في اعزاز الكلمة وإسباغ النعمة بإظهار هذه الأمة، وماوعد به من نصر

www.dorat-ghawas.com

أوليائه وخذلان أعدائه، وإدالة الموحدين وإذالة المُلحدين، والصلاة على رسوله، صلّى الله عليه وعلى آله، وذكر طرف من مواقفه في الجهاد ومقارعته لشيع الإلحاد، وتأييد الله تعالى أنصاره على أهل العناد. ثمّ يذكر الحادثة بنصّها ويشرح القضية على فصّها، ويستنصر من جاوره وداناه من أهل المِلّة أجمعين ويخاطبهم بما يرهف عزائمهم في نُصرة الدين وكنافة المسلمين واتباع سبيل السلف الصالحين الذين خصّهم الله بصدق الضمائر ونفاذ البصائر وصحة الدين ووثاقة اليقين، فلم يكونوا يرومون مراماً إلّا سَهّل لهم ماتوعّر ويسّر عليهم ماتعسّر، وسما بآمالهم الى ماهو أقصى منه مرمى وأبعد مدى، رغبة فيما (٣٥٩) رغّبهم فيه من نُصرته وتعرّضاً لما عرّضهم له من جزيل مثوبته، وأنْ يحضّهم على التمسك بعزائم الدين والعمل على بصائر المخلصين، وافتراض مافرض الله عليهم من جهاد أعدائه وتنجّز ماوعدهم به من الإظفار بهم والإظهار عليهم، وأنْ يجاهدوا مستبصرين ويؤدّوا الحقّ محتسبين، ويقدّموا أرسالاً لاناكثين ولا ناكصين ولا شاكّين ولا مرتابين، متبعين الحق حيث يمّم وقصد ومضاربين دونه من ندّ عنه وعند، ويُبالغ في تنحية اهل البسالة والنجدة والباس والشدّة وبعثهم على نصر حقّهم وطاعة خالقهم، والفوز بدرك الثواب والرضوان ونفوذ البصائر في الإيمان، وفضيلة الانف من الضّيم والبعدُ[٥] من الذّيم، الى غير ذلك مما يسهّل بذلَ الأرواح والمهج والإقدام على مصارع التّلف، فإن الملوك الماضين، لعلمهم بأنّ الناس إنّما يجودون بذلك للفوائد التي توحيه، كانوا يبذلون لمن يدعونه الى المكافحة ويعرضونه للمنافحة الرغائب التي تهوّن عليهم إلقاء أنفسهم في المهالك تارة، ويذكّرونهم الأحقاد والضغائن [ويخوّفونهم من الوقوع في المذلّة أخرى][٦].

وينبغي أنْ يقدّم الكاتب في هذه الكتب مقدّمات يرتبها على ترتيب يهزّ الأريحيات ويشحذ العزائم ليجمع بين خدمة سلطانه والفوز بنصيب من الأجر.

الكتب في الحضّ على لزوم الطاعة

طاعة السلطان والانقياد اليه والرجوع الى رأيه والاعتماد عليه أقوى الأسباب في استمرار الاتساق والاستتباب، وهي فرض أوجبه الله تعالى، فقال: ﴿أطيعوا الله (٣٦٠) وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[٧].

ولاتصح مملكة ولاتدوم دولة إلّا بأمرين: أحدهما: عدل السلطان. والآخر: طاعة الرعية له. فمتى ارتفع أحدهما ضد السائس والمسوس. ولم تزل الأزمنة تتقدّم الى الرعايا بلزوم الطاعة والاعتصام بحبل المشايعة والنهي عن مفارقة الجماعة.

والرسم فيها أنْ يفتتح بالحمد لله على النعمة في تأليف قلوب أهل الدين وجمع كلمة الموحدين، وإهواء أهوائهم الى الاتفاق وصيانة عصاهم من الانشقاق، والصلاة على رسوله، صلّى الله عليه وسلّم، والتنبيه على فضائل الطاعة وأنّها العروة الوثقى والمعقل الذي لايُرقى، والحصن الحصين والكنف الامين، والحمى الامنع والمرقب الأرفع، وأنّ مَنْ حافظ عليها فاز وسَلِم وربح وغَنِم، ومَنْ فارقها خسِر وخاب ونكب عن سبيل الصواب، وأيضاح مافي لزوم الطاعة من اتفاق الكلمة وانتظام شمل الأمة، وشمول الخيرات وعموم البركات، وعمارة البلاد وصلاح العباد، ومافي المشاقة من الفساد العام العائد بانتشار النظام، وانبتات الحبل وتفرّق الشمل واجتثاث الأصل، وطموس الديار وصيال الأشرار على الأخيار، وتوالي الفتن التي لاتُصب الظالم خاصّة دون العادل، ولا المشاقق دون الموافق، وحلول النوائب المُزيلة للنِّعم المُنزلة للنِّقم، واتباع ذلك بما يجب من إعذار وإنذار، وترهيب وترغيب، وتذكير وتبصير، ووعظ وتخويف، وبعث العلماء الحصفاء على وزع الجهلاء (٣٦١) السخفاء، وتنبيه أهل السلامة الصلاح على كفّ ذوي العبث والطّلاح، الى نحو هذا مما يجاريه. وأنْ يبالغ فيما يورده من هذه المعاني، فإن هذه الكتب إذا كانت بلغة مستوفاة جيدة العبارة أخذتْ بمجامع القلوب وأغنت عن الكتائب في إدراك المطلوب.

الكتب بالتنبيه على مواسم العبادة

إنّ الله وقّت لعباده أوقاتاً عظّم شأنها ورفع مكانها، وأمرهم أنْ يتقرّبوا فيها إليه بتأدية مافرضه عليهم، لُطفاً بهم ورأفة وحناناً

www.dorat-ghawas.com

ورحمة. ولم يزل السلطان يكتب الى عُمّاله بتنبيه الرعايا عليها وتعريفهم فضل العبادة فيها، ليستقبلوها بالإخبات والخشوع ويتلقّوها بالتضرّع والخضوع، ويتوسّلوا في قبول التوبات وغُفران الخطيئات، حفظاً لنظام الدين وتفقّداً لمصالح المسلمين.

والرسم فيها أنْ يفتتح بحمد الله تعالى على أنْ وقّت لعباده أوقاتاً يتقبّل فيها قربهم وأعمالهم ويخفّف بالإنابة اليه عند حلولها [illegible] وأثقالهم، فيغفر لمستغفرهم ويعفو عن مُسيئهم ويتقبّل التوبة عن تائبهم والصلاة على رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم.

ثمّ يقدّم مقدمة مبيّنة على تعظيم هذه الاوقات والإبانة عمّا في قَصْرِها على العبادات والمسابقة الى الخيرات من عظيم المثوبات. ويشفع ببعث الولاة أخذ الرعايا بالمحافظة على السّنن وتعهّد حقّ الله تعالى فيها، والتوسّع في توكيد الحجة ونفي الشبهة، وايراد المواعظ الرادعة التي تعود بشحذ البصائر وصفاء الضمائر، والإيذان بحقوق هذه الأوقات (٣٦٢) وحرماتها والفوز بما توفده من جزيل بركاتها والتوفّر على حسن مجاورتها، والتقرّب الى الله تعالى ببذل الصدقات والإقبال على الصلوات وزيارة بيوت العبادات، ومذاكرة أهل الدين والسعي في مصالح المسلمين، ونحو ذلك ممايناسبه.

فإن كان الكتاب مقصوراً على الدعاء الى الحجّ افتتح بحمد الله على أنْ جعل لعباده حرماً آمناً يمحّص ذنوبهم بزيارته ويمحو آثامهم بحجّه ووفادته. ويلي ذلك مايليق به من الحثّ على تأدية المناسك وتكميل الفرائض والسنن وزيارة قبر النبي، صلّى الله عليه وسلّم. وكذلك الحكم في سائر الأبواب الدينية.

وينبغي للكاتب أنْ يُحسن التأني في هذه الكتب ليلينّ القاسي ويذكّر الناسي، وينبّه الغافل اللاهي والمهمل الساهي، ويحرّك النفوس نحو مصالحها ويبعثها على الأخذ بفاضل الأعمال وصالحها.

الكتب عند حدوث الآيات السماويات

جرت العادة أنْ يكتب السلطان الى الرعايا، عند حدوث الآيات المهولات التي يريد الله تعالى بها إرشاد عباده الى الإقلاع عن معصيته والإقبال الى طاعته، كالرياح العواصف والصواعق واحتباس القطر وخروجه في السحاب عمّا جرت به العادة، كما يضمّنها من الوعظ الشافي والرقيق مايأخذ بمجامع القلوب ويشعرها للتقوى والرهبة، ويبعث على المراقبة والنظر في العاقبة.

والرسم فيها أن يفتتح بحمد الله على آلائه التي يفيضها ابتلاء واختباراً، وآياته التي يرسلها تخويفاً وإنذاراً، وموهبته في التوقيف بسابغ نعمته على طاعته (٣٦٣) والتحذير بدامغ نقمته من معصيته، والصلاة على رسوله الذي أنقذ بشفاعته وعصم من نزول القوارع بنبوّته. ثمّ يقدّم مقدمة تتضمن أنّ الله تعالى يقدّم الاعذار أمام سخطه وعذابه ويبدأ بالإنذار قبل غضبه وعقابه، فمَن استيقظ من سنته ونظر لعاقبته فزع الى طاعته وأقلع عن معصيته كشف ضرّه وضاعف أجره، ومن أضرب عن موعظته وتعامى عن تبصيره وتذكرته أخذه على غرّته وسلبه سربال نعمته. ثم يؤخذ في حث الأمّة على الفزع الى الصلوات والمسارعة الى بيوت العبادات، والإكثار من التضرع والخشوع والاستكانة والخنوع وإذراء الدموع، وأخلاص التوبة عن محتقب الآثام ومجترح الأوزار، والتوسّل الى الله تعالى في قبول الإنابة بقلوب نقيّة وطويّات على الطهارة مطويّة، وسرائر صحيحة ونيّات صريحة، يصدّقها الندم على الماضي وعقد العزم على الإقلاع في الآتي، والرغبة إليه في رفع سخطه وانزال رحمته، ومايجاري هذا.

وينبغي للكاتب أنْ يتلطف في الموعظة ويبالغ في الذكرى التي تحصر الخواطر وتقدح الأنفس، وتحرّك العزائم نحو الإخلاص فإنه إذا ماأبرز هذه المعاني في صور تُشعر الخيفة من غضب الله تعالى وعقابه وترغّب في عفوه وثوابه، نفع الله من رغب عن الهوى ورغب في التقوى بكتابه.

الكتب في النهي عن التنازع في الدين

(٣٦٤) من أهمّ ماصرف إليه السلطان تفقّده ووقف عليه تعهّده أمرُ الرعايا في أعماله وتنفيذ الكتب إليهم بالنهي عن التنازع في الدين، وحسم أسباب المجادلة والمراء والتحذير من اتباع البدع والأهواء والإخلاد الى مضلّ النِّحل والآراء، لأنه من

www.dorat-ghawas.com

فسح لهم في هذا الباب صاروا شيعاً متباينين وفرقاً متحاربين، وانشقّت عصاهم وانقضت حيلهم وخرجوا عن أحكام أهل السلامة الى أحكام أهل الفتنة، وعاد ضرر ذلك على الدين والسلطان، ولهذا صرف اليه الساسة الحَزَمة من الملوك والاهتمام ولم يخلوا بحسم مادته على تغاير الأيام.

والرسم فيها أنْ يُصدّر بحمد الله تعالى على نعمته في تأليف كلمة أهل الإسلام ومامنّ به عليهم من الاتفاق والالتئام، وشكره على موهبته في نزع الغلّ من صدورهم والتأليف بين قلوبهم، وتصييرهم اخواناً متصافين وخلّانا متوافين[٩]، وعونهم بما وفّقهم من التوازر على من شقّ عصاهم وإقدارهم بما منحهم من الالفة على مراماة مَنْ راماهم، والصلاة على سيّدنا محمد، صلّى الله عليه وعلى آله. ثمّ يشفع هذا وما يجاريه بأنّ أمير المؤمنين بمامكّنه الله تعالى في أرضه ووفّقه له من القيام بفرضه، والنهوض بحقّ طاعته والعمل بكتابه وسنته، ورغبته في الخير العام وشمول الصلاح لكافّة الأنام، لايزال يحضّ رعيته على مايقضي بسداد دُنياهم وحسن المنقلب في أخراهم، ويرى أنّ أنفع ذلك عائدةً وأجزله فائدةً مارفعَ عنهم أسباب التنافرُ ودعاهم الى التعاضد والتضافر، (٣٦٥) وحال[١٠] بينهم وبين الخوض في محدث النِّحل والآراء والإصغاء الى مضلّ البدع والأهواء التي تصدّ عن سَنَن الهدى، وتلقي في مزالق الردى وتدعو الى شقّ العصا وتفضي بانتشار النظام واختلاف الأنام وانفصام عرى الإسلام، وكفّهم عن المماراة في الدين والإصغاء الى سنّة المضلّين المعطلّة للسُّنن القادحة للفتن الداعية الى احتقاب الآثام وإراقة الدماء الحرام ونحو هذا مما يضاهيه.

ثمّ يقول: وانتهى الى أمير المؤمنين التفاتكم عن معايشكم التي جعلها الله لدنياكم قواماً وعبادتكم التي صيرها لاخرتكم نظاماً، واقبالكم على المماراة والمنازعة والمناظرة والمجادلة في شكوك يقيمها من يرغب في الرياسة والتقدّم ليفوز بحبيت الطعم [الذي][١١] يعمي البصائر ويفسد السرائر، ويقدح زند الضلال ويشبّ نار المحال والانتحال، فامتعض[١٢] أمير المؤمنين من ذلك وخاف عليكم أليم عاجلته وذميم آجلته، وبادركم بكتابه هذا منبهاً لغافلكم ومرشداً لجاهلكم، وباعثاً لكم على التشاغل بما أطاب أخباركم وحسّن آثاركم، من تلاوة كتاب الله الذي أمركم بتلاوته وزيارة بيوت عبادته والتأدب بأدب نبيّه وعترته، وأوعز الى النائب في الحرب بتقويم من خرج عن أمره وتثقيف من أصرّ على غيّه، وأنْ يحسم الداء من قبل استشرائه ويستدركه دُوين استفحاله، فاصغوا الى زواجر أمير المؤمنين ومواعظه واقتدوا بهَدْيه ومراشده لتفوزوا بطاعته وتسعدوا برضاه وصلاته (٣٦٦) وتسلموا في الحاضر من نكاية أنتم بغيرها أولى ماسلكتم الطريقة المُثلى وفي الغابر مما أعدّه الله لمَنْ خالف أمره من العقاب في الدار الأخرى، فاعلموا هذا واعملوا به إنْ شاء الله.

وقد يكتب السلطان الى الرعيّة بالنهي عن التفاخر بالبلدية والتنازع في العصبية، والطريقة في هذا المعنى مشتقة من طريقة هذا الرسم.

الكتب عن الخليفة عند انتقال الخلافة إليه

جرت العادة أن تنفّذ الكتب الى ولاة الأعمال في مثل هذه الحال مضّمنة ماجرى عليه الأمر بالحضرة من انقياد الأولياء والرعايا الى الطاعة ودخولهم بصدور منشرحة في البيعة وحضّ مَنْ بها من رجال السلطان ورعيته على الدخول فيما دخل فيه أمثالهم وإعطاء الدعاة على ذلك صفقة أيمانهم.

والرسم فيها أنْ تصدّر بحمد الله على عوارفه التي لم تزل تكشف الخطب وترأب الشعب، وتدفع المُهمّ وترفع الملمّ، وتجبر الوهن وتسبغ الأمن والمنّ، والصلاة على رسوله سيّدنا محمد، صلّى الله عليه وسلّم، وذكر خصائصه ومناقبه وتشريف الله له بإقرار الأمانة في ذريته وردّ الخلافة الى عترته والتنويه بذكرهم في كتابه والإبانة عن أنّهم حبوته وأهل صفوته الذين طرّهم من الأرجاس وفرض مودّتهم على الناس بقوله: «إنما يريدُ الله ليذهبَ عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويُطهّركم تطهيراً»[١٣]، وما أمرَ به رسوله من سؤال أمته في مودتهم فقال: (٣٦٧) «قل لاأسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القُربى»[١٤] وتفويضه خلافته الى وصيّه علي أمير المؤمنين

www.dorat-ghawas.com

ونصّه عليه وتسليمه بمحضر من العام والخاص اليه. ويتلو هذا بالإفصاح عن شرف الخلافة وفضلها والإبانة عن رفيع مكانها ومحلها، وأنّها ظلّ الله الممدود وحبله الممسود، ومساك الدين ونظامه وملاك الحقّ وقوامه، وامتنان الله تعالى على العباد بأنْ جعل لهم أئمة يبسطون العدل عليهم ويقيمون الحدود فيهم ويقوّمون أديانهم ويهذّبون ايمانهم ويرهفون بصائرهم ويهدون حائرهم ويكفّون ظلومهم وينصفون مظلومهم ويجمعون كلمتهم ويحمون ذِمارهم ويحوطون دارهم ومايجاري هذا.

ثمّ يذكر مأأوجبه الله على أهل الإسلام للإمام من الطاعة وحُسن التباعة أيام حياته والائتمار مره في الانقياد الى مَنْ ينصّ عليه بمرتبته بعد وفاته، ليتصل حبل الإمامة بينهم ويمتدّ ظلّ الخلافة عليهم[١٥]، ثمّ يأتي بمقدمة في ذكر الموت وأنّ الله تعالى سوّى بريّته وجعل في تطرقه الى رسوله اسوة لخليقته، وتفرّد بالبقاء وامتنع على الفناء، ثمّ يُقال: وإنّ الله لمّا أختار لعبده ووليه فلان النقلة الى دار كرامته والحلول بفناء طاعته وأعانه على سياسة بريّته، وأنهضه بما حمّله وأيده بما كفله من الذبّ على المسلمين والمراماة عن الدين، والعمل بكتابه وسنّته في القول والفعل واستشعار خيفته ومراقبته في السرّ والجهر ومايليق بهذا، استخلص عبده ووليه فلاناً[١٦] الإمام الكذا بخلافته، وأهمى سماء الرحمة بإمامته، وأحكى عُرى العصمة بولايته، وألقى في نفس رأيه[١٧] النصّ عليه والتفويض إليه لما علم سبحانه في ذلك من شمول المصلحة للعباد وعموم الأمنة للبلاد، فارتسم، قدّس الله روحه، مأأفهمه وكمّله قبل (٣٦٨) خروجه من دار الدنيا وتمّمه، عالماً بفضل اختياره وأنه لم يملْ مع الهوى في إيثاره، فقام أمير المؤمنين الإمام الكذا مقامه وحفظ نظامه وسدّ ثلمته وعفّى رزيّته، وأقرّ الإمامة به في نصابها ومقرّها وزاد باستخلافه في صيت الخلافة وقدرها.

وأمير المؤمنين يسأل الله أنْ يخصّ قلبه السعيد بقربه بأفضل صلواته وأشرف تحياته، ويحسن جزاءه عن سعيه في صلاح العباد وسداد البلاد، وأنْ يُلهم أمير المؤمنين من الصبر على تجرّع الرزية فيه أفضل ماجزى صابراً محتسباً، وأنْ يجبر كسره في فقده ويوفّقه لجميل العزاء من بعده، ويسدّده في مصادره وموارده ويهديه لما يرضيه في جميع مقاصده، ويعينه على مائألف الأهواء وجمع الأرزاء، ونظم الشمل وكثّر القُلّ وأدجى الظلّ وأزالَ الشكّ والارتياب.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد أجتمع مَنْ بحضرته من ذوي الحمية وأمراء دولته وكافة جنده وحماة حوزته على بيعته وإعطائه صفقة أيمانهم على طاعته ومشايعته، عن صدور مخلصة نقيّة وسرائر صافية سليمة وعقائد مشتملة على الوفاء بما عاقدوا عليه وانقادوا مختارين إليه، وشملتهم بذلك الرحمة وصفت عليهم النعمة، فما ترحوا للرزية حتى فرحوا بالعطية، ولاوجموا للمصيبة حتى بسموا للرغيبة، ولاأظلموا لفقد الماضي حتى أضاءوا لوجود الآتي.

فلله الحمد على هذه المنّة التي جَبرت الوهنَ وحققت في فضله المنُّ، حمداً يستدرّ (٣٦٩) أخلاف فضله ويستدعي سوابغ طوله، وصلّى الله على محمد وآله.

وأمير المؤمنين يراك من أهل مخالصته والمتحققين بطاعته والجديرين بإجابة داعي تبعته والمسارعين الى الاعتصام بحبل دعوته، وهو يأمرك أنْ تأخذ البيعة على نفسك وعلى جميع أوليائه المقيمين قبلَك وكافّة رعاياه الذين في عملك، وتشعره بماعقدته للمسارعين الى الطاعة المبادئين في التباعة من نشر الإنصاف والعدل وإفاضة الإحسان والفضل، ومالَمْ نكب عن الطريقة المُثلى وعدل عن الأولى، من الكفّ الرادع والأدب الوازع، ويتوسّع في هذا المعنى توسعاً يشرح صدور أهل السلامة المستمرين على نهج الاستقامة، ويقبض أيدي أهل الفساد ويغضّ من نواظر ذوي العناد، ويحلّي هذا الكتاب بآيات من القرآن تحسن استعارتها في باب العزاء ويليق ذكرها في باب الإشادة بالخلافةِ والخلفاء.

وهذا الرسم فيما يصدر الى الأعمال، فأمّا مايُقرأ بالحضرة فإنّه يُقال في موضع: وكتاب أمير المؤمنين إليك، وانتم معاشر الأشراف بني عمّ أمير المؤمنين والعلويين وخواصّ الدولة وأمرائها وأمثالها وأجنادها وكتّابها وقضاتها وكافّة رعيتها ومن اشتمل عليه ظلّ مملكتها، أحقّ من حافظ على عوارفنا واعتدّ بلطائفنا وقام بشكر نعمتنا وسارع الى بيعتنا واعتصم بحبل دعوتنا فأجمعوا على متابعتنا وإعطائنا صفقة أيمانكم على مشايعتنا، ليجمع الله على التأليف كلمتكم ويحمي بالتوازر[١٩] بيضتكم ويتبع هذا من وعد أهل الطاعة بما يُرهف حدودهم ومن وعيد أهل المعصية بما (٣٧٠) يُصغّر خدودهم على نسق ما ذُكر في الترتيب الاول.

www.dorat-ghawas.com

الكتب في الهُدَن

هذا الفن من المكاتبات له من الدولة موضع خطير ومن المملكة موقع أثير، ويتعين على الكاتب أنْ يُخلي له فكره ويعمل فيه نظره، ويتوفّر عليه توفّر يُحكم مبانيه ويُهذّب معانيه، وأنْ يتحيّط من سقط يُدخل على الشريعة تقصيراً أو يجرّر الى السلطان وهيصة، وأنْ يأتي بما يدلّ على عُلُوّ الكلمة وعزّ الأمة وانبساط القدرة وحضور النصرة، واستجمام العِدّة واستكمال العُدّة، وظهور الأيد ووفور الجند، وقصور الملوك عن المطاولة وعجزهم عن المصاولة، ليعود ذلك بالرفع من أهل الدين والوضع من المخالفين.

والرسم فيها أنْ يفتتح بحمد الله تعالى على الهداية الى دين الإسلام الذي أذلّ به كلّ دين وأعزّه وخذل كلّ شرع ونصره وأغمض كلّ مذهب وأظهره، والتوغّل في توحيده وتقديسه وتمجيده والثناء عليه بآلائه والصلاة على خيرة أنبيائه محمد، صلّى الله عليه وعلى آله.

ثمّ يذكر رغبة الخلفاء الراشدين، عليهم السلام أجمعين، في السلم الذي حضّ الله تعالى عليه وأمر بالجنوح متى جنح المخالفون إليه، فقال جلّ قائلاً: «وإنْ جنحوا للسَّلْمِ فاجنحْ لها»[٣٧٠]. وأنّهم لولا ذلك لشرعوا الأسنّة الى مخالفيهم في الدين ونصبوا الجهاد الى جهاد من يليهم من الملحدين، ائتماراً لقول الله تعالى: «يأيها الذين آمنوا قاتلوا (٣٧١) الذين يلونكم من الكُفّار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أنّ الله مع المتقين»[٣٧١]. ويأتي في هذا المعنى بما يستوفيه ويكفي فيه، مما يرهب أهل الخلاف ويقودهم الى الموابقة بجرائم الاعتساف. ثمّ يقدّم مقدمة تكون بساطاً لذكر السبب الذي أوجب عقد الهُدنة ودعا الى قبول المُوادعة. ثم يشفع الشروط التي[٣٧٢] انعقدت المسالمة عليها مستظهراً فيها للدين على المعاهدين وليتحرّز من خَلَل يتطرق به الى نقص شيء مما شرط او استعمال لفظ مُشترك أومعنى مُلتبس يوقع شبهة يوحد السبيل الى التأوّل وليأخذ المأخذ الواضح الذي لاتتوجّه عليه مُعارضة ولاتتطرق إليه[٣٧٣] مُناقصة، وليؤكد القول فيما تقرّر على من مفاداة أو تسليم حصون أو حمل مالٍ أو حفظ سفر أو إقامة أو امداد بجيش أو دخول في طاعة أو مجانبة عدو أو محاربته وترك مواطأته أو كفّ رجاله وغيرهم ممن يدخل في طاعته ويحالف عليه من أهل مملكته عن ثغور الاسلام، الى غير هذا.

وليبن الكلام على مالا مدخل للإخلال فيه، ويؤكد الشرط في حفظ تجار المسلمين ورعاية المسافرين والمحتارين وتوجههم بالإعزاز والكرامة والتمييز وصونهم برّاً وبحراً وسهلاً ووعراً ولايبق فرجة حتى يسدّها ولا صدعاً حتى يرأبه. ثم يقتصر شروط المتهادن فصلاً فصلاً. والبليغ المطبوع يكتفي بقريحته في ترتيب هذه المعاني إذا دفع الى الإنشاء فيها إنْ شاء الله تعالى.

وقد يتعاقد عظماء أهل الإسلام على التوادع والتسالم واعتقاد المودّة والتصافي (٣٧٢) والتوازر والتعاون والتعاضد، ويشترط الأضعف منهم للأقوى تسليم بعض مافي يده أو القيام عنه بمقاطعه أو الانقياد الى التباعة والطاعة او الإكرام في المخاطبة والمجاملة في المعاملة أو الإمداد بجيش إنْ هجم عدوّ او امتثال الأوامر والنواهي، وغير هذا مما [لا][٣٧٤] يُحصى.

والكاتب إذا استقرى المعاني التي يقع الاصطلاح عليها وكان ذا طبع قويم وخاطر سليم تهيّأ له الاحتياط فيها بما يحتاط به في مثلها.

وقد جرت العادة بأن يتقاسم المتهادنان بأيمان على ما تهادنا عليه تودع كتاب المواصفة.

وقد رسمنا لليمين رسماً يحتذي الكاتب عليه متى احتاج الى استعمال مثله، وهو يقول: فلان بن فلان والله الطالب الغالب المُدرك المُهلك، الضار النافع، المطّلع على السرائر والخفايا، العالم بما تجنّه الضمائر والطوايا، الذي لاتخفى عليه خافية الأعين وماتخفي الصدور، القائم على كلّ نفس بما كسبت والمجازي لها بما احتقبت، وحقّ محمد، صلّى الله عليه وسلّم، وحقّ القرآن العظيم المنزل على قلبه الذي «لايأتيه الباطلُ من بين يديه ولامن خلفه»[٣٧٥]، أنّه يفي بما تضمنه هذا العقد ولا يخالف شيئاً من أحكامه وحدوده ولاينقض عهداً ولا عقداً ولا شرطاً من عهوده وشروطه وعقوده، ولا يعمل بما يخالفه وينافيه، ولا يتأوّل وجهاً من

www.dorat-ghawas.com

وجوه التأويل فيه وعليه بذلك عهد الله وميثاقه وما أخذه على ملائكته ورسله وأنبيائه، فإنْ خالفه أو خالف شيئاً منه أو تحيّل في نكثه أو توصّل الى نقضه أو أدهنَ (٣٧٣) أو أدغل أو تمحّل أو تعمّل فحنث أيمان البيعة لازم له بحلالها وحرامها وعتاقها وطلاقها وحجّها وصدقتها وجميع حدودها وموجباتها، وبرئ من الله، عزّ وجلّ، وملائكته المقرّبين وأنبيائه المرسلين، ومن محمد، صلّى الله عليه وسلّم، ومن الأئمة من آله الطاهرين، ولقيَ الله تعالى جاحداً له، مشركاً به، مدّعياً له البنات والبنين، قائلاً فيه مايقوله عُبّاد الأوثان وحملة الصُّلبان، شريكاً لقتلة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وولده الحسين عليهما السلام، موالياً لأعدائهم، معادياً لأوليائهم، راضياً بكلّ دم سفكه أئمة الضلال في الإسلام، وعليه الحجّ الى بيت الله الحرام ثلاثين سنة حافياً حاسراً راجلاً لايأجره الله على ذلك، وكلّ مائملّكه من تالد وطريف صدقة محرّمة خارجه عن يده، وكلّ زوج له طالق ثلاثاً بتاتاً طلاق الحرج والسنّة وعلى سائر المذاهب التي يصحّ بها الطلاق، وكلّ عبدٍ له وأمَه أحرار لوجه الله تعالى لاسبيل له عليهم، وكلّ فرس في رباطه حبيس في سبيل الله، وهو برئ من دين الإسلام كلّه على اختلاف مذاهبه، مفارق لعصمته، خارج عن دائرته، ومن كلّ دين يدين به المتدينون واعتقاد يعتقده المعتقدون. وهذه اليمين يمينه كلّما حاول الخروج منها عاد فيها ورجعت يميناً غموساً مؤكدة مطوّقة في عنقه حتى يلقى الله تعالى يوم القيامة، وهو ماخوذ بها مُطالب، والنيّة في جميع ذلك نيّة المستحلف، فإن نقض شيئاًمن هذه اليمين فقد أباح ماله ودمه ونقض عصمته وذمّته، وليس له بعد ذلك لاعَهْدٌ ولاعَقْدٌ (٣٧٤)، وسائر رجال الدولة في حل وسعة من ماله ودمه وولايته وامارته ومن كلّ ما يعاملونه به من معاقبة ومحاربة. وحلف بهذه اليمين طالباً راغباً في صحة عقله وجواز أمره، طائعاً غير مُكره ولا مجبر ولامُضطهد، وذلك في يوم كذا.

فإنْ كان الحالفُ خليفةً قال: يقول فلان بن فلان أمير المؤمنين في أصالة من رأيه ونفاذ من حزمه، سالكاً سبيل الرضى والاختيار غير تابع لحكم من أحكام الكراهية والاضطرار. ويستوفي معاني اليمين على الإجمال توقيراً له، وإذا وصل الى. . . قال: وعليّ أيمان أهل البيعة، ولم يفصّلها إلاّ أنّه يقول: فإنْ نقضتُ ذلك فقد خلعتُ نفسي من الخلافة، ونقضتُ بيعتي التي في أعناق الكافّة، وأبرأتهم منها في الدنيا والأخرة، وبرئتُ من ولادة فلان بن فلان.

الكتب الى مَنْ نقض العهدَ

فإنْ نقض معاهد عهده ونقض من شروط الهدنة يده، فالرسم أنْ يصدّر مايُكاتَبُ به بحمد الله تعالى على موهبته في إظهار الدين وإعزاز المسلمين، وما تكفّله من النصر على الباغين ووعد به أهل العدل من الإدالة والتمكين، والصلاة على سيّدنا محمد النبيّ، صلّى الله عليه وعلى آله أجمعين، وإيراد طرف من معجزاته وفضائله وآياته ومناقبه التي تنخرط في هذا النظام وتليق بهذا النمط من الكلام، (٣٧٥) ثمّ يتبع ذلك بمقدمة تدلّ على مقامة البصائر في الدين ووثاقة العقائد في إذالة المُلحدين ومضاء العزائم في مجاهدة(٢١) المعتدين والاستطالة على المعاندين مع ماتضمّنه الله تعالى من نصره وإظفاره ووعدَ به من تأييده وإقداره، وسهّله من أهواء الأهوية إليه وجمع الكلمة عليه، بما خوّله من بأس وعديد وعدّة، ومايليق بهذا مما يُعرب به عن علو السلطان ووفور الأعوان، واتساع القوّة والأيد وصدق التشمير والجدّ. ثمّ يذكر الحال التي انعقدت الهدنة عليها وأنّ الإجابة لم تكن وقعت إليها قصوراً عن غزوهم في عقر دارهم وتشريدهم بالغارات المشبوبة برّاً وبحراً عن قرارهم، وإنّما كانت قبولاً لمساءلتهم وامتثالاً لأمر الله تعالى في مسالمتهم، ويُؤخذ في تعديد الوقائع التي أوقعها أهل الاسلام بهم، والمشاهد التي نصر الله تعالى فيها عليم والمعاقل المنتزعة من أيديهم، وأنّ تلك العزائم مضطرمة متوقّدة وتلك السيوف محدّدة مهنّدة، وأنّ الله تعالى قد أباح حُرَم مَنْ نقض عهده ونقض من الذِّمام يده، وأنّ كتائب الله مرجفة وراء هذا الكتاب، في جيش يلحق الحَزْنَ بالهضاب مالم يكن منهم مبادرة الى الإقلاع والإنابة ومكاتبة في الصّفح والاستنابة، وأنّه قد قدّم الأعذار وبدأ قبل الإقدام بالإنذار، وماتقتضيه الحال من هذا ونحوه.

فإنْ كان الكتاب جواباً عن كتاب ورد أُجيب بما يقتضيه، وبُنيَ الأمر فيه على مايبسط اهيبة، ويدعو الى النزول على أحكام الطاعة.

وقد قلنا: إنّ الأمور الحادثة والأسباب العارضة لاتتناهى فيحيط بها مِثالٌ. وينبغي أنْ يحتاط (٣٧٦) الكاتب فيما يطلق به

www.dorat-ghawas.com

قلمه من هذه المعاني الخطيرة، لأنّها مزاحمة بالدول والملك، وحججٌ [تحصل][٣٦] من كلّ دولة عند الأخرى، ودَرَكٌ مايقع فيها عائدٌ عليه ومنسوبٌ إليه.

الكتب إلى مَنْ خلع الطاعة

هذه الكتب تختلف رسومها بحسب اختلاف أقدار المُكاتبين وأحوالهم في الخروج عن الطاعة، وجمع أوضاعها كلّها في قانون كُلّي عَسير المرام، إلاّ أنّنا نرسم فيها رسوماً يمكن الزيادة فيها والنقص منها. والعادة أنْ تنفّذ هذه الكتب الى مَنْ تُرجى إنابته وتؤمل مراجعته. فأمّا مَنْ وقع الإياس من استصلاحه ودعت الضرورة الى كفاحه، فلاحاجة الى معاتبته ولا وجه لمكاتبته مع تصامُمِهِ عن الوعظ ومصارمته.

والرسم فيها أنْ يفتتح بعد التحميد المناسب لغرض الكتاب والصلاة على النبيّ، صلّى الله عليه وعلى آله بما يدعو الى إيناسه ويزيل أسباب استيحاشه ويعود بثبات جاشه، ويبعثه على مراجعة فكره ومعاودة النظر في أمره، وتذكيره بما أُسدِيَ من العوارف إليه وأُفيض من النّعم عليه، وألاّ ينفّر سِرْبه بجحدها وكفرها ويوحش ربيبها بإهمال حمدها وشكرها، ويرتبطها بحسن الطاعة ويستوهبها بالتأدب في التباعة، ولا يجرّ [الوبال][٣٨] على نفسه بالخروج عن العصمة، في عاجل الحال ذميم الوصمة، وفي آجلها أليم النقمة. وينظر لعاقبته ومَنْ يليه من ذوي الحميّة بما يقتضي ربّ الإنعام لديهم وإقرار الفضل عليهم، (٣٧٧) ولايسلبهم مَلْبَس الظلّ الظليل ويعطّلهم من حُلي الرأي الجميل، ويتدرّع في أثناء ذلك بشعار النفاق ويتسم بميسم الشقاق، ويتعجّل إزعاجه من داره وبُعْدَه من قراره، وهدم ماشيّده الإخلاص من ذكره وتقويض مارفعه الاختصاص من قدره، ويعود بعد أنْ كان مجاهداً عن الحوزة مجاهراً لجُندها وبعد أنْ كان مراميا عن السُدّة مرمياً بيدها، ويضيع ماأُدلّ اليه وأُفيض من الاحسان إليه، وماذهب من الزمن في ترييحه الى مراقي السيادة ومن الرغائب في إلحاقه بأهل السعادة، ولا يغترّ بمَنْ يُزيّن له عاجلاً بمنح الآجل ويتقرّب إليه بخُدَع الباطل، وينبذ أقوالهم دبر سمعه ويبعد أشخاصهم[٣٩] عن نظره، ناظراً في عاقبته وحارساً لمهجته، وزاغباً في حَقْنِ دَمِهِ وصيانة حُرَمِهِ، وليرجع الى الفناء الذي لم يزل يُحرزُه والكنف الذي لم يزل يعزُّه، ولايجعل مُساله بالعنود مُنازِعاً ومُواصله بالجحود مقاطِعاً، وواهبه بالكفر سالِباً ومطلع النعمة بإيضاعه حقّها مَغْرِباً، وقد بقيَ في الحبل عسك وفي الأمر مستدرك لأنْ يهبّ من رقدته ويستبدل من لقاء راية أمير المؤمنين بلقاء حضرته، ثمّ يقول: فإنْ كان ماجناه قد نفّر سربه وكدّر شربه، وحسّن في نفسه سوء الظنّ وأخافه بعد الأمن فليرسل[٤٠] بمَنْ يستوثق له ويعاقد ويتوكّد ويعاهد فإذا عاد بما[٤١] يملأ فؤاده أمناً ويكون عليه حصناً، سارع الى امتثال المراسم وجرى في الطاعة على سَنَنه المتقادم، ولا يستمرّ على المدافعة (٣٧٨) والمطاولة ويقتصر على المغالطة والمماطلة.

ويُقال بعد هذا: وقد قدّم أمير المؤمنين كتابه هذا إليك حاجباً لكتائبه وجرّد في استصلاحك قلمه قبل تجريد قوابضه، وخيوله تجاذب الأعنّة وذوابله مشرعة الأسِنّة، ولم يبق ألاّ قصدك في عقر دارك التي بوّأكها وانتزاع نعمته التي منحكها، فاستنشقْ سموم المعصية وقسه على نسيم الطاعة، وتذوّق مرارة المخالفة وزِنْها بحلاوة الموافقة، وكُنْ على نفسك لنفسك حاكِماً ولاتكُنْ لها ظالماً، ونحو هذا ومايليق به.

وإنْ كانت المكاتبةُ الى رجل قد سبقت له سابقة في خلع الطاعة ثمّ سأل الإقالة فأُقيل بعد مشارفته الإحاطة به والنكاية فيه ثمّ راجع العصيان، فالرسم فيها أنْ يُفتتح بحمد الله جاعل العاقبة للمتقين والعدوان على الظالمين، والعزّة لحزبه وأوليائه والمذلّة لحربه وأعدائه والاظهار لأهل طاعته والخسار لأهل معصيته ودائرة السوء على المناوئين لخلفائه في بريّته، ثمّ يُقال: يحمده أمير المؤمنين على مالايزال يتخوّله به من تصديق آماله وتوفيق أفعاله، وتسديد مراميه وهداية مساعيه، وإجابة دعوته[٤٢] وتحقيق رغبته، وادالة مُواليه وإذالة مُعاديه، ومعونته على ماتولاّه وتمكينه عمن ناواه، ويسأله[٤٣] الصلاة على سيّدنا محمد نبيّه، صلّى عليه وعلى آله وسلّم.

ثمّ يؤتى بمقدمة تدلّ على حميد عاقبة الطاعة وذميم مغبّة المعصية، يبسط القول عليها ويتوسّع فيها لتكون فراشاً لما يتلوها.

(٣٧٩) ثمّ يُقال بعدها: وإنما عمد لذلك أهل الغرارة الذين لم يلوكوا شكائم التجارب ولم يمارسوا صرائم النوائب، وأنتَ فقد

www.dorat-ghawas.com

تذوّقت من كراهة المعصية ومرارتها وعذوبة الطاعة وحلاوتها، مايرجو أمير المؤمنين أنْ يكون وَعَظَك وأدّبك وقوّمك وهذّبك وكشف لك عن عاقبتها، فدعتك الطاعة إليها لما أسبغته عليك من لباس شرفها ومجدها واستخدمته لك من أنصار إقبالها وسعدها ونهتك المعصية عنها بما بلوته من سوء آثارها وصناعتها وجرّبته من مربض مراميها ومواقعها، لأنّها أقلّت عددك وشتّتت شملك وولدك ومزّقت مُطرفك ومُتلدك، حتى تدارك من عطف أمير المؤمنين ماأنبتك بعد الحصد وراشك بعد الحصّ، وانتهى الى أمير المؤمنين أنّك حننتَ الى أتباع الضلالة الذين غرّوك ومِلتَ الى أشياع الفتنة الذين استهووك، فأدنيتهم إليك وقرّبتهم منك، وأصغيت الى أقوالهم التي ظاهرها نُصْح وباطنها غِشّ، وآرائهم التي مواردها صلاح ومصادرها فساد، ومِلْتَ الى ماحسّنوه لك من معاودة الشقاق والارتكاس في غيابة العصيان ومقابلة النُعمى بالكفران، فقدِمَ كتابُنا اليك مذكّراً ولنُصْحِك بخطابه مُعْذِراً مُنذِراً ليُعَرِّفك حظّك ويهديك رشدك ويحضّك على الاحسن بك في مبدئك وعاقبتك، ويحذّرك من مراجعة مافارقته واستئناف ماقارفته وأن تنزل عن المنزلة التي رقّاك إليها (٣٨٠) وتجدب رباعك من النعمة التي [أرتعك][٣١] فيها، وتتخلّ[٣٢] عن شرائع الدّعة التي أوردك عليها، فانظر لنفسك حسباً وكُن إليها محتسباً، وانتفع بمراشد أمير المؤمنين ولاتخسر بخلافك عن أمره نصيبك من الدنيا والدين، وارجع إليه مسترحماً فإنه يقتدي بالله في الرحمة للمحسنين[٣٣]، مادام مؤثراً لربِّ النعمة لديك واقرارها عليك، فاعلم هذا واعمل به إنْ شاء الله.

فإنْ نفذت المكاتبة في هذا وأمثاله من الوزير فالرسم فيها أنْ يُقال: موضعك، أعزّك الله، من عنايتي وموقعك من رعايتي، وماكفلته عنك لأمير المؤمنين وضمنته والتزمته واشترطته تقتضيني المحافظة عليك وربّ الصنيعة لديك. وكلّما حسّنتُ أثرَك وجّلتُ خبرَك ورددتُ مايُنسبُ إليكَ ودفعت في صدر حاسديك، قعدت عن نصيرتي وتثاقلت عن معونتي، خُطئاً لرشدك ومغفلاً من ثمرة جنايتك مُرّاً وزللت فسلكت من عقبي ذلك وعراً، وقد كان ينبغي لك أنْ تتحفظ من تلك المزلقة فلاتتهوّر فيها وتستيقظ لموقع قدميك فلا تتوهّر[٣٤] اليها، وأنْ تتذكّر مرارة السالف فتعافه في الأنف وتأنف من مذلّة التالد فتوقّاها في الطارف، وأنْ تعتصم بمسكه من هزّةٍ وأريحيةٍ إذا تعرّيت من دين وتقيّة، فتقي مرّةً بعهدك وتحافظ على عقدك. وقد كنتُ وعظتك في تلك الكرّة وأيقضتك قبل توغّلك في السكرة، ونصحتك وطرف الحبل في يدك وبصّرتك (٣٨١) طريق رشدك، فأبيتَ إلّا تعامياً وتصاممت ادعاءً للمعرفة وتعاطياً، حتى دارت عليك الدوائر وخانتك العواقب والمصائر، وشارف حبلك التصرّم وركنك التهدّم، وأوقفك احترازك عن سماع الإنذار أقبح مواقف الإعتذار، فلولا عاطفة من مولانا أمير المؤمنين أدركتك بوسائل قدّمتها وضمانات تكفّلتها لنزل بساحتك المحذور والتوت عليك الأمور، وهاأنا اليوم خجل منك مشفق عليك، وكأنّي بك وقد رددت التوبة بعد هروجها جدعة وعاودت السقطة والوقعة، وأذنت لما أعرته من النعمة بالعود الى ربّه والنزول على مَنْ يسترهنه ويوجد السبيل الى ربّه، وقد كان الأحزم أنْ تسدّ الثغرة التي ولج منها إليك وتحطّ المرقاة التي تسوّرها الحدثان عليك، وانت اليوم على حال يمكن تلافيها واستدراك غلطك فيها، فراجع التأمّل ولاتستمر في غلوائك ولاتمل مع أهوائك، فليس لمَنْ تاب ونكث وأوقد نار العصيان وأرّث إلّا الاجتثاث والاستئصال وحطّ الرتبة وتحويل الحال.

وقد غالطت عنك ماأمكن وحسّنت أمرك ماتحسّن، الى أنْ أتى الى امير المؤمنين إلمامُك ببعض ماكتب عليه فأكبره وأعظمه وأنكره، وأمر بالكتاب إليك مُودَعاً من مراشده مايبصّرك ويُسدّدك، فقف عليه واعرف الأصلح لك والأعود عليك، ولاتُخيّر متجري فيك وأجبْ أمير المؤمنين بما يُبطل مانُسب اليك، وأسمعه بشواهد من فعلك تصدّمه ودلائل (٣٨٢) تحقّقه واكتب إلي بما أعمل عليه إن شاء الله.

فإنْ كانت المكاتبة الى رعية قد خرجت عن الطاعة كتب اليها عن أمير المؤمنين بما مثاله: أمّا بعدُ وفقكم الله لطاعته وعصمكم من معصيته. فإنّ الشيطان [يُدلي الإنسان][٣٥] بغروره ويجلو الشبه في معارض البيّنات بزوره، مستخفّاً لطائشي الألباب مستزلاً للأقدام عن موقف الصواب مُحسّناً بكيده لاعتقاد الأباطيل مُزيّناً بغيّة اتباع الأضاليل صارفاً بمكره عن سواء السبيل، مصوّراً للحقّ في صورة المَيْنِ مُغطّياً على القلوب بمرصد الرّين[٣٦]، والحازم اليقظ مَنْ تحرّز من أشراكه وحبائله وتحفّظ من مخايله وغوائله، واتّهم

www.dorat-ghawas.com

هواجس فكره واستراب بوساوس صدره، وعرض مايعرض له على عقله وكرّر فيه صادق تأمّله، فإنْ ألفاه عادلاً عن الهوى مائلاً الى التّقوى، بريئاً من خُدع الشيطان آمناً من عوادي الافتنان، أمضاه واثقاً بسلامة مغبّته وشمول الأمن في أوّله وآخرته. وانتهى الى أمير المؤمنين أنّ الشيطان المَريد استخفّ أحلام جماعة من جُهالكم فخفّت واستهفى أفهام عدّة من أراذلكم فهفّت، وحسّن لهم شقّ عصا الإسلام ومعصية الامام، ومفارقة الجماعة والانسلاخ من الطاعة، التي فرضها الله تعالى على الجمهور وجعلها نظام الأمور، فقال جلّ قائلاً: «ياأيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأُولي الأمر منكم»[٤٠]، واختيار الفُرقة التي نهى الله تعالى [عنها][٤١] فقال: «لاتكونوا كالذين (٣٨٣) تفرّقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البيّناتُ»[٤٢] ومجانبة الألفة التي عدّها في جلائل نِعَمِهِ، فقال ممتنّاً بها على عباده: «واذكروا نعمةَ الله عليكم إذْ كنتم أعداءً فألّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا»[٤٣]، وسوّل لهم التعرّي من آداب الدين والمجاهرة بالخلاف على أمير المؤمنين، فنبذوا مابأيديهم من بيعته وسُلبوا من ظلّ دعوته، وركبوا من ذلك أوعر المراكب وشربوا أجنّ المشارب، وسعوا في البلاد بالفساد [وقاموا في وجه الحقّ بالعناد][٤٤]، واستخفّوا بحمل الآثام وبسطوا أيديهم الى الدماء الحرام وشنّ الغارات على أهل الإسلام.

وقد علمتم أنّ مَنْ أقدمَ على تأثير هذه الآثار فقد استنزل في هذه الدار لسخط الجبّار وتبوّأ في الآخرة مقعده من النار، وجرى على غير الواجب في إقامة الفروض والصلوات وتأدية العبادات والزكوات وعقد العقود والمناكحات، لأنّ هذه الأحوال إنّما تُرتضى وتُرفع وتُجاب وتُسمع، إذا تولّاها أمير المؤمنين أو مَنْ يستخلفه من صُلحاء المسلمين، فأما إذا استبددتم فيها بأنفسكم واقتديتم في تأديتها بناكث عن سبيله مجانب لدليله فقد تسكّعتم[٤٥] في الضلالة وتطابقتم على الجهالة، وكلّ راضٍ منكم بذلك عاصٍ لله ولرسوله وللإمام.

ولمّا اطلع أمير المؤمنين على ماذهبتم اليه بسوء الاختيار وركبتموه من مراكب الاغترار لم يَرَ انْ يُلغيكم ويهجركم ويغفلكم ولاينصركم، فقدّم مُكاتبتكم مُعذراً مُنذراً ومُخوّفاً مُحذّراً، وبدأكم بوعظه مشفقاً عليكم من زلة القدم (٣٨٤) وموقف الندم، وصارفاً لكم عن مضال الغواية الى مراشد الهداية وافتتحكم باللفظ الأحسن والقول الألين، وهداكم الى السبيل الأوضح والمتجر الأربح، راجياً أنْ يهديكم الله تعالى الى طريق الرشاد ويدلّكم على مقاصد السداد، ويعيدكم الى الأولى ويقفكم على الطريقة المثلى، وأنْ تعرفوا الحقّ فتعتصموا بما في أيديكم من بيعته وتقوموا بما فُرض عليكم من طاعته، وترجعوا الى إجماع المسلمين ومااتّفقت عليه كلمة إخوانكم في الدين، وتتبعوا مذاهب أهل السلامة وأُولي الاستقامة، فإنْ وقع مألقاه اليكم الموقع الذي قدّره فيكم وسألتم الإقالة، فالتوبة تنفعكم والعفو يسعكم، وأنْ تماديتم في غيّكم وباطلكم وغروركم وجهلكم نفذت إليكم جيوش أمير المؤمنين مقوّمَة ومن عصاتكم منتقمة، وذلك مقام لايتميز فيه البريئ من السقيم ولاالجاهل من العليم، ألا تسمعون[٤٦] الله تعالى: «واتّقوا فتنةً لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصةً»[٤٧] وأيّ فتنةٍ أشدّ من طاعة الشيطان ومعصية السلطان وشقّ العصا وإراقة الدماء وإثارة الدهماء، فاتّقوا الله وارجعوا وتأملوا وراجعوا وتبصّروا واستبصروا فقد أوضح لكم أمير المؤمنين المحجّة وبدأكم بالحُجّة فأوجدوه السبيل الى مايؤثره لكم ولكافة أهل الإسلام من حقن الدماء وصيانة الحريم وتحصين الأموال وشمول الأمن والأمان، وأجيبوا عن كتابه هذا بما يوفقكم الله تعالى له من إجابة دعائه (٣٨٥) والعمل برأيه إنْ شاء الله.

فإنْ كانت المكاتبة الى رجل قد عُفي له عن بلاد بيده وفُرضت عليه مقاطعة يحملها الى بيت المال في كلّ سنة فلا خلّ بحملها وأطمعته نفسه فيها، نفذت المكاتبة إليه من الوزير بما مثاله: قد علمت، أيّدك الله، أنني لاأغني في ربّ نعمة أمير المؤمنين أربك وإقرارها عليك عن معونة منجهتك، بما تبذله من خدمته وتستدعي به الزيادة من عارفته، وقد أخللت بحمل مال المفاوضة المستقر عليك اخلال من يظن إنّ مابيده ميراثٌ حازه عن أبيه وجدّه، إنْ نُزع منه عويل بالظلم والإجحاف وإنْ أُقرّ له به اعتدّ بالعدل والإنصاف، ودعاك إمهال السلطان لك الى الطمع في ماله، وقد يضرب صاحب الحقّ عن اقتضاء حقّه ثم يقتضيه ويغفل مايجب له ثمّ يستدعيه، فلا يغترّ اللبيب بنظرته وينام عن عاقبته، بل يعدّ مايلزمه الى حين استدائه، هذا إذا لم يتبرّع بادائه، وقد ذهب بك المهل الى تظليم من اقتضى حقّه وتجوير من استدعى دينه، ودعتك كزازة همّتك وبخلك بيسير من كثير ماجمعته وحقير من خطير ماحويته، الى تشتيت شمله كلّه والانسلاخ من ظلّه، والتعرّض لزوال النعمة وحلول النقمة، وشماتة الأعداء وكآبة الأولياء،

www.dorat-ghawas.com

وابتزاز ماهو أصل للمال، والتشرّد عن الوطن والتصدّي للمحن، ولباس الذّلّة بعد العزّةوالضّعة بعد الرفعة، فراجع الأمر بصحيح لبّك وارجع عن ذميم مذهبك، وانو الصحة واعتقدْها واثو النعمة بالوفاء وخلِّدْها، (٣٨٦) واخرج قليلاً تحفظ كثيراً، واهمل مافي جهتك ولاتُفرِّط في مغبّتك، ولاتغترّ بمن يُزيّن لك عاجلاً قبيح الآجل ويتقرّب إليك بالباطل، وقد أعذرتُ وأنذرتُ وأعلمتُك ماعندي قبل خروج الأمر من يدي، وإذا قاربت فلن أتباعد وإذا يسّرت فلن أتعسّر إن شاء الله.

فإنْ كانت المكاتبة الى رجل قد أقدم على نهب أو شنّ غارةٍ أو غصبِ مال أو تغيير دعوة أو سكّة أو لقاء جيش أو حشد رجال أو غير ذلك مما يخرج عن أحكام الطاعة، ضمنت مكاتبته من القريع المؤلم والوعيد المزعج والخطاب الموجع مايعود بكفّه عن فعله، وتخييره في أمره وشغله بنفسه.

وأكثر هذه الكتب تصدر عن الوزير، وليست رسومها مما تُحصر بقوانين جامعة. والذي مثّلنا به كافٍ في تعرّف أوضاعها واستنباط أمثالها بمشيئة الله تعالى وعونه.

الكتب بالتضييق على أهل الجرائم

لم يزل السلطان يكتب الى الولاة عندما ينتهي إليه من إقدام الرعايا على ارتكاب الجرائم واستباحة المحارم واقتراف المآثم كالزّنا واللّواط وشرب الخمر وقطع الطرق والغصب والتظالم ومايجري هذا المجرى بالتضييق وإقامة حدود الله فيهم.

والرسم فيها أنْ يُفتتح بحمد الله البادئ بنعمته قبل افتراض طاعته المبتدئ[٣٨٧] ببرّه قبل إيجاب شكره، خالق الخلائق جوداً وكرماً وموسعهم منناً ونعماً، الذي اختار دين الإسلام (٣٨٧) وطهّره من الأرجاس ونزّهه عن الأدناس واختصّ به صفوته من الناس وابتعث به محمداً سيد المرسلين «ليُنذِرَ مَنْ كانَ حيّاً ويحقَّ القولُ على الكافرين»[٣٨٨]، يحمده أمير المؤمنين أنْ فوّض إليه إيالة[٣٨٩] خلقة وأقدره على القيام بحقّه، ونصبه لإعزاز دينه والمحافظة على مفروضه ومسنونه، وذيادة العباد عن محارمه التي نهى عن التعدّي إليها وإقامة الحدود عليهم فيها، ويسأله[٣٩٠] الصلاة على محمد، صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم.

ثمّ يُقال: وانّ أمير المؤمنين يرى أنّ من أعظم نِعَم الله تعالى عليه توفيقه[٣٩١] لحفظ مااستحفظه من شريعته ورعاية مَنْ استرعاه من بريّته، وتوفير العناية على مَنْ قلّده النظر فيهم واعتماد ماعاد بالصلاح والدنيا عليهم، وساوى به بين قريبهم وبعيدهم في تفقّده وعائلته بين قاصيهم ودانيهم في تعهّده، فلاينال القريب نصيباً من رعايته وملاحظته إلّانال مثله البعيد على عدواء داره ومحلّته، ولذلك لايزال ينبّه غافلهم ويعلّم جاهلهم ويهدي حائرهم ويحدّ بصائرهم ويروق مائدهم ويصلح فاسدهم، ويتخوّلهم من مواعظه بما يبرد الغُلل، وينسخ الشكّ باليقين ويقتبس مقابس النور المبين. فمَن أصغى الى إرشاده سَعِدَ جَدُّه ووري زندُه وأحمد يومه وغده، ومَنْ خالف عن أمره ضلّ مسعاه وخسر آخرته ودنياه، ودعا الى اتباع أمر الله تعالى في تقويمه وإصلاحه والكفّ بإقامة الحدود عليه من جماحه.

وانتهى الى أمير المؤمنين ماأقدم عليه (٣٨٨) الأحداث وأهل الغرارة قبلكم من احتقاب الآثام واستدماث مراكب الحرام، والاستهتار بمحظور اللذات والإكباب على دنيّ الشهوات، التي تسلخ من الدين وتخرج عن دائرة المسلمين، وتقطع عن تأدية العبادات وإقامة الصلوات، وتنظم في سلك البهائم المُرسلة والسوائم المُهملة، وتقصير مشايخهم وعلمائهم عن كفّهم والأخذ على أكفّهم، وتعريفهم وجوه مراشدهم وتقويم أودهم، فامتعض[٣٩٢] من ذلك فأشفق عليكم من نزول القوارع والمُثلات وحلول البليات والآيات، وارتجاع ماأودعكم الله تعالى من نعمته وانتزاع ماألبسكم من رحمته، وبادرَ بكتابه موقظاً لغافلكم ومُبصّراً لذاهلكم وباعثاً لكم على مراجعة الأولى ومعاودة الطريقة المثلى، ومبادرة آجالكم بأعمالكم والأخذ لآخرتكم من أولاكم[٣٩٣] ولسقمكم من صحتكم ولنومكم من يقظتكم، عالمين بأنّ الدنيا لعب ولهو وأنّ الآخرة هي دار القرار وأنكم فيها كسَفْر شارفوا المنزل، وكأنّ قدحين لاعمل ولاأمل، ولاتوبة ولاإنابة، ولاعذرة ولامغفرة، وإذ لا ينطقون ولايؤذن لهم فيعتذرون. فاجتهدوا

www.dorat-ghawas.com

عباد الله واحتشدوا وأقلعوا وارجعوا واسمعوا وعُوا، فكأنّكم والله بالدنيا وقد تصوّح[٣٨٨] يانعها وتوضّحت خدعُها وتصرّم متاعها وحلّ متوقّعُها، فالسعيد مَنْ وثق بما قدّم لنفسه بعد نفادِ أيامه وورود حمامه، والشقيّ [مَنْ][٣٨٩] (٣٨٩) أفرط وفرّط، ونَدِمَ حيث لامَنْدَمَ، وأوعز الى والي الحرب فلان بقراءة مانُصّ فيه عليكم، واختبار سيركم بعد مروره على أسماعكم، فمَنْ رغب في التقوى ورغب عن الهوى وآثر الآخرة على الدنيا، عرف ذلك له وتوخّاه بتكرمته وتخوّله، ومَنْ أبى إلاّ غواية وضلالاً وبطالة ونِحالاً أقام حدّ الله تعالى عليه غير مراقب فيه، فرحم الله عبداً صانَ نفسه في هذه الدار عن العار وحماها في الآخرة من عذاب النار، وأمير المؤمنين يرجو أنْ ينفعكم الله بهداية وشفى صدوركم بموعظته ويرشدكم الى مايُفضي بكم[٣٩٠] الى الكفاية والحماية. فليعلم فلان بن فلان ذلك عن أمير المؤمنين ورسمه وليعمل بحُكمه، إن شاء الله.

الكتب في الاعتذار عن السلطان

من أخلاق العامة تقبيح سيرة السلطان إذا زلّ في بعض آرائه، والإزراء على تدبيره في جيش يجهزه فيُكسر، ونحوذلك مما لا يُسْلَمُ من مثله، والإفاضة فيه والتشنيع به. وهو يحتاج الى مكاتبتهم بما يتلافى الوهن ويقيم العُذر، كما يكاتبهم بما [فيه][٣٩١] تفخيم المنح وتعظيم الفتوحات والتحدث بموقع المواهب، وشكر الله على اسباغ النِّعم والإظفار بأعداء الدين والدولة، لتقوى بذلك نفوسهم وترهف بصائرهم وتستخلص طاعتهم وتملأ صدورهم رهبةً، وليست لهذه الكتب رسوم تنتظم كلّ مايقع فيها لاختلاف مايُلام فيه. ونفيد في أصوله قولاً وجيزاً وهو: أنْ يقتضِبَ الكاتب له المعاذير التي تُحسِّنُ أحدوثته وتسترُ زَلّته، والحجج التي تعيد اللائم عاذراً (٣٩٠) والذامّ شاكراً، وقد تهبّ ريح النصر للقاسطين على المقسطين امتحاناً من الله وبَلْوى، «ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحُسنى»[٣٩٢]، إلاّ أنّ ذلك قليل من كثير ويسير من خطير، مما يسبغه على أوليائه من الإظهار ويقضي لهم في العلو والاقتدار، وليس ذلك، وإنْ أثر، بقادح في بصائر المخلصين ولا مسلّط للشكّ على اليقين، من غير أنْ يصرّح بباطل ولايحتج بماحل، ولايطلق كذباً محضاً، ولايختلق زوراً يعلم الناس خِلافه، فتتضاعف الهجنة وتتكاثف المحنة، فإنّه لاشيْ أقبح على السلطان وأقدح في جلالة الشان من أنْ يُعثَرَ في[٣٩٣] كتبه على إفْك قد تعمدّه في دفع الإخبار عنه، وإنما ينبغي أنْ يعتمد في ذلك حسن التخلص والتورية عن الغرض واستعمال الألفاظ التي تدل على أطراف الحال ولاتفصح بحقائقها.

الكتب في الفتوحات

المكاتبة في الفتوحات والظفر بأعداء الدولة والملّة واسترجاع المعاقل من أيدي المخالفين من أعظم المكاتبات خطراً وأجلها قدراً لاشتمال أغراضها على إنجاز وعد الله الذي وعد به أهل طاعته في إظهار دينهم على كلّ دين وتوفير حظّهم من التأييد والتمكين، ومايمرّ فيها من الأساليب المختلفة التي يشتمل هذا القانون عليها.

والكاتب يحتاج الى تصريف فكرته فيها وتهذيب معانيها، لأنها تُتلى (٣٩١) من فوق[٣٩٤] المنابر على أسماع السامعين وتجعل نصب عقول المصلحين.

والرسم فيها أنْ يفتتح بحمد الله العفوّ الحليم، الغفور الرحيم، العليم الحكيم[٣٩٥]، العزيز العظيم، ذي البرهان المبين والفضل الجسيم والقوّة المتين والعقاب الأليم، مبيد القاسطين ومؤيد العادلين وجاعل العقبة للمتقين، المُملي إمهالاً وإنذاراً والمعاقب تنبيهاً واذكاراً، الذي لايُنجي منه مهرب ولايبعد عليه مطلب، وكيف يعتصم منه وهو أقرب من حبل الوريد وله على كلّ لافظ رقيب وعتيد والصلاة على رسوله الأمين الذي ختم به النبيين وفضّله على المرسلين وأيّده بأوليائه الميامين، الذين قاموا في نُصرته وإعزاز رايته، المقامَ الذي فازوا فيه بالحُظوظ واستولوا به على قصبات الفضل، فشكرهم معه في الوصف والثناء، فقال جلّ قائلاً: «محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشداءُ على الكفار رحماء بينهم»[٣٩٦].

www.dorat-ghawas.com

ثم يُؤتى بمقدمة تشتمل على التحدّث بنعمة الله في شحذ العزائم لنُصرته وتثبيت الأقدام في لقاء عدوه ومجاهدته، وإنجاز وعده في الإعزاز والإظهار والنصر والإظفار والاستبشار بموقع النعمة في الفتح الجميل والإشادة بثنائه الجليل، ثمّ يفيض ماجرت عليه الحال في مقاربة العدو ومداناته وبثّ الطلائع وتنفيذ السرايا في مبادئ ملاقاته، ومايُفضي إليه الأمر من التقابل في المواكبة والتواشج في المطاعنة والمضاربة، وذكر مواقف الشجعان في الكفاح والمجاهدة والذّبّ والمُجالدة، وثبوت الأقدام ونفاذ البصائر والجود بالنفوس واشتداد الأيدي وقوّة الشكائم (٣٩٢) واستحصاف[٦٤] العزائم، وتفخيم أمر العدو ووصفه بكثرة الرجال والأجناد والقوة والاستعداد لأنّ موقع الظفر بمن هذه صفته أعظم خطراً ممن قلّت عِدّته وعُدّته، وماجال بين الفريقين من قراع ومصارع ودمر ودفاع ومصاولة ومناضلة ومسابقة ومكافحة وحماية ومنافحة وثبات ومصافقة ومقاومة ومواقفة[٦٥] ومخادعة ومطامعة، ونعت المواكب والكتائب والخيول والأسلحة والجرحى والمُجدّلين والأسرى والمقتّلين، واستعمال التشبيهات الرائعة والاستعارات الواقعة، وإرداف المعاني في الإبانة عن لموع أسنّة الذوابل وصدوع لحوم المناصل في القِمَم، ونعت الدماء المنبعثة من الجراح على متون الرماح والصفاح.

ويذكر ماأظهره الله تعالى من مخايل النصر ودلائل الظفر ومااجلت عنه الحرب مِن قتلِ مَنْ قُتِل وأسر مَنْ أُسِر وهزيمة من هُزِم، ومافاز به الرجال من الأسلاب والأموال والدواب والرحال ماجرت عليه الحال من انفلال العدو عند المقاتلة أو فراره عند المقابلة أو استئمان رجاله راعين في الإقالة أو أسره إن أُسِر أو اعتصامه بمعقل لايحصّنه أو امتناعه بحيث يحتاج الى منازلته واستنزاله قَسْراً أو حيازة المعقل الذي كان بيده وما اعتمد فيه من حسن السيرة وتخفيف الوطأة عن الرعيّة وحسم أسباب الفتنة وإعادة الخطبة والسكّة الى العرف المعهود أو رغبته في المسالمة (٣٩٣) وسؤاله في المهادنة بخوفٍ أظَلّه وهلع احتلّه، وماتردّد من رسائل وتقرّر من شروط وعقود وإنفاذ الأمر في ذلك لما أوجبه الحزم واقتضاب صواب الرأي أو تأخيره ليستأمر فيه ويستدعي من المراسم مايعمل عليه.

وإنْ كان السّلم قد وقع والتنازع قد ارتفع ذكر اقتناع الحرب وإقلاع الخطب، واجتماع الشمل واتصال الحبل، واختلاط الفريقين وامتزاج الحزبين، واتفاق الكلمة وشمول النعمة.

وإنْ كان المقدّم لم يجبه الى الموادعة حتى وضحت الحقيقة في صَدق رغبته وخلوص نيّته حذراً من المكر والمخادعة، ذكر مامرّ في ذلك من رأي وتدبير وتسديد وتقرير.

وإنْ كانَ طلبَ المهادنةَ تداهناً ليجد فُسحة المَهل فيُكثّر عددَه ويجم عُددَه ويجدّد شوكته وتتمّ حيلته فاطّلع على ذلك فبادره مُفَلّلاً لكيده ومكره مُذيقاً له وَبال أمره، شرحتِ الحال على نصّها وماانتهى إليه آخرها.

وقد يقع من هذه الأمور مالا يُحتسب، وسبيل جميعه هذه السبيل ويختم الكتاب بحمد الله القاضي لأوليائه بالإدالة ولأعدائه بالإذانة، الذي يستدرج المغترّ بحلمه إمهالاً ولا يلقى العادل عن حكمه إهمالاً، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وعلى آله.

وهذه الكتب تصدر عن أمير المؤمنين الى عماله ورعاياه، وعن وزيره أيضاً، وتصدّر اليهما ممن تولّى الفتح، ومعانيها واحدة وطرقها في العبارة مختلفة.

ومَنْ وقف على أحكام المكاتبات الصادرة عن التابع الى المتبوع ومن المتبوع الى التابع، التي استوفيناها فيما تقدّم لم يتعذّر عليه ترتيب هذه الكتب (٣٩٤) وتنزيلها منازلها.

الكتب في التوفقة[٦٦] بين السنين الهلالية والخراجية

السبب في انفراج مابين السنتين الشمسية والهلالية أنّ أيّام السنة الشمسية هي المدّة التي تقطع الشمسُ الفلكَ فيها دفعة واحدة، وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوماً وربع بالتقريب، حسبما يُوجبه حساب حركتها. وأيام السنة الهلالية هي المدّة التي يقطع القمرُ الفلكَ فيها اثنتي عشرة دفعة، وهي ثلثمائة [و][٦٧] أربعة وخمسون يوماً وسُدُس بالتقريب فيكون التفاوت بينهما أحد عشر يوماً

www.dorat-ghawas.com

وسُدُس[يوم][٣٨].

وإذا تمادى الزمان تفاوت مابين السنتين تفاوتاً يقبح، فيرى السلطان عند ذلك أنْ تُنقل السنة الشمسية الى السنة الهلالية بالاسم دون الحقيقة توفقةً بينهما وإزالةً للشبهة في أمرهما. ومتى أوعز بذلك لم يقف على الفرض فيه لا الخاصة دون العامة واسرع الى ظنّ المُعامَلين وأرباب الخراج والأملاك أنّ ذلك عائد عليهم بظلم وحيف، والى ظنّ الجُند ومستحقي الأطماع أنّه منتقص لهم، وجوّروا السلطان وشنّعوا عليه، فرسم بلغاء الكُتّاب في هذا المعنى رسوماً تعود بتفيهم العيّ وتبصير العميّ وتوصل المعنى المراد الى الكافة ايصالاً[٣٩] يتساوون في تصديقه وتيقّنه، ولاتتوجّه عليهم شبهة ولاشكّ فيه. وهو أنْ يفتتح هذه الكتب بعد التصدير والتحميد بأنّ أمير المؤمنين بما وفّقه الله تعالى له من النظر في مصالح المسلمين والأخذ (٣٩٥) بعزائم الدنيا والدين، لايجد ثغرة يتطرّق فيها خلل إلّا سدّها ولامزلقة يتوجّه بها زلل إلّا مهّدها ووطّدها، مجرّباً للسياسة على أحسن أوضاعها وغير مُخلّ بنوع من أنواعها، وإذ لاح له من سديد التدبير وشريف التقرير مايلمحه ذوو التميز بوثاقة أصولهم ويعمى عنه أولو التقصير بسخافة محصولهم، لم يمضه حتى يوضح وجه الإصابة فيه لتطابُق الخاصة والعامة على اعتماده ويتساوون في العلم باستقامته وسداده ولاسيّما ماكان داخلاً في المعاملات المتعلقة بالرعايا الذين متى لم يثلج صدروهم في معاملاتهم بردُ اليقين ويوصل الأغراض الى أوهامهم الإفصاح والتبيين، ساءت حدوسهم وتنكّرت نفوسهم، فإذا بلغ بهم الى الغاية جاهلهم وعالمهم وناقصهم وفاضلهم، أنفذ آراءه وأمضاها وقصد منها السبيل التي أرشده الله تعالى لها ونحاها، وأمير المؤمنين يسأل الله سبحانه تسديده في كلّ مايحلّ ويعقد ويصدر ويورد ويرسم ويحدّد، ونحو هذا مما يليق به.

ثمّ يُقال: وإنّ الله تعالى هدانا بتبصرته الى الوقوف على عجائب صنعته، وأقدرنا بالتمييز الذي خصّنا بفضيلته على التطرّق الى علم الغائبات عن حواسنا من دقائق حكمته، وأوجدنا السبيل بما منحنا من التحصيل والإدراك الى الإحاطة بحركات النجوم والأفلاك، والعلم بما يحدث بينهما من ممازجة واتصال ومباينة وانتقال، وإضاءة وشروق ورعشة وخفوق، وليل ونهار، وزيادة ونقصان وشتاء ومصيف وربيع وخريف، (٣٩٦) وأنواء وأهواء ومايتبع ذلك. فقال جلّ قائلاً: «هو الذي جعلَ الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً وقدّرهُ منازلَ لتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ ماخلقَ الله ذلكَ إلّا بالحقّ»[٤٠]، وقال: «ألَمْ تَرَ أنّ الله يولجُ الليلَ في النهار ويولجُ النهار في الليل وسخّر الشمسَ والقمرَ كُلٌّ يجري الى أجَلٍ مُسَمّى»[٤١]، وقال: «والقمرَ قدّرناهُ منازلَ حتى عادَ كالعُرْجُونِ القديمِ. لاالشمسُ ينبغي لها أنْ تُدركَ القمرَ ولاالليلُ سابقُ النهارِ وكلٌّ في فَلَكٍ يسبحون»[٤٢]، ليدلّ جلّ اسمُهُ على تفصيل حالاتها وتغاير الأزمنة باختلاف حركاتها، ويذكر الغاية في اختلاف السنين الشمسية والهلالية التي ذكرناها أمام ذكر هذا الرسم، والاضطرار الى الجمع بينهما إذا افترقا ومادبّره كلّ أمة في الأيام الفاضلة عن أيام الشهور ومذاهبهم في ذلك واستمرارهم عليه الى أنْ أجبرت الشريعة الهادية الاحكام... على الشهور والسنين الهلالية، فاجتبيت فيها الصدقات والجوالي والمقاطعات وأُجر الرباع وسائر مايجري على المشاهرات، واجتبيت في السنين الشمسية أموال الخراج والمعاملات الديوانية، وأنّه لو أغفل إلحاق السنة الخراجية بالهلالية لكان بينهما من سنة الهجرة والى سنتنا هذه، وهي سنة سبع وثلاثين وأربعمئة، أربعَ عشرةَ سنة بالتقريب، وقبح ذلك غاية القبح.

ثمّ يقال: وقد رأى أمير المؤمنين، والله يوفّق آراءه، نقلَ سنة كذا الخراجية الى سنةِ كذا الهلالية. فاعملْ بما تضمّنه كتابه هذا وتقدّم الى مَنْ قِبَلك من العمال بإجراء الأمر عليه في (٣٩٧) جاعاتهم وأعمالهم، وأنْ ينسبوا ماكان جارياً في السنة المنتقل عنها الى السنة المنتقل إليها، وأقرأ كتاب أمير المؤمنين على مَنْ قبلك من الأجناد والرعايا والمعاملين، ليعلموا أنّ هذا النقل لاينتقص ذا عطاء من عطائه، ولا يتحيّف معاملاً في معاملته. فاعلم هذا واعمل به إنْ شاء الله.

الكتب بالتنويه والتلقيب

الرسم في هذه الكتب أنْ يفتتح بحمد الله تعالى نعمه السابغة الضافية ومواهبه[٤٣] الرّاهنة الثاوية، وعوارفه التي جعلها جزاءً

www.dorat-ghawas.com

للمحسنين وزيادة للشاكرين، ونحو هذا مما يليق أنْ يفتتح به هذا الغرض، والصلاة على سيّدنا محمد، صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله.

ثمّ يُقال: وإنّ أمير المؤمنين بما خوّله الله تعالى من نِعمه ونوّله من قِسَمِه، وخصّه به من التمكين في أرضه والمعونة على القيام بفرضه، يرى الاقتداء به في إفاضة المنن على خِلصائه وإسباغ النِعم على أوليائه واختصاصهم بالنصيب من حبائه، والارتقاء بهم الى المنازل الباذخة والرتب الشامخة، وأنّ أحقّ مَنْ وفر قسمه من مواهبه وعزّز سهمه من عطاياه ورغائبه مَنْ تميّز بما تميّزت به من إخلاص ومطاوعة وولاء ومشايعة، وصفاء عقيدة وسريرة وحسن مذهب وسيرة. ولذلك رأى[٣٧] أمير المؤمنين أنْ ينعتك بكذا لاشتقاق هذا النعت من سماتك واستنباطه إيّاه من صفاتك، وشرّفك من ملابسه بكذا وطوّقك بطوقٍ أو بعقْدٍ، (٣٩٨) وقلّدك بسيف من سيوفه وعقد لك لواءً من ألويته، وحملك على كذا من خيل وكذا من مراكبه. ويُحسِّن الوصف لكلّ نوع من هذه الأنواع واشتقاق ألفاظ من معانيه تُعرِبُ عن قدر الموهبة فيه. ثمّ يُقال: إبانة بذلك عن مكانك من حضرته وإثابة لك عن تشميرك في خدمته، فالبسْ تشريفه وتطوّق، وتقلّد ماقلّدك به، واركب حلانه، وابرز للخاصة والعامة في ملابس نعائمه وارفل في حلل آلائه وزيّن موكبك بلوائه، وقُل: «رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ»[٣٨]، وأعني على مايسترهنها لديّ، وكاتب أمير المؤمنين متلقّباً متسمّياً، ومَنْ سواه متلقّباً متكنّياً.

فعلى هذا جرى الرسم في خطاب الخلفاء الراشدين، لأنّ اللقب موهبة من مواهب الإمام أمضاها وأجازها، فإذا مرّت عليه كانت كغيرها من نِعمه التي يلمحها على عبيده. والكنية تكرمه يستعملها الناس فيما بينهم وليس حكمها كحكم اللقب.

فأمّا ماتُنعت به الأنواع التي يشرّف بها السلطان أولياءه فليس مما ينحصر في قول جامع ليقين النعوت والأوصاف إلّا أنّ مثاله أنْ يقولَ: وشرّفك من ملابسه الحاظية بما تسحب به ذيل الاعتلاء على مناكب الجوزاء وقلّدك من سيوفه بسيف مأثور كالجدول المسجور تخاله تقمّص بالهبا وترى على صفحتيه مدبَّ نمال في ربا، زاهٍ بجوهريه الطبيعي الرصعي، مفتخر بملابسه مقلد[٣٩] بحبل النبيّ والوصيّ، وحَمَلَكَ على جوادٍ مُطهّم كأنّما انتقلت بالرياح الأربع أربعُهُ وأصغى الى استرقاق السمع مسمعُه، فهو يذرع (٣٩٩) أدراج البيداء ويسابق نزول القضاء الى الأعداء، مسرّج بمركب خاص من النضار الخالص، وطوّقك بطوق من التبر مرصّع بفاخر الدُّرّ، تحسبه الهلال أحرق نجوم الثريا، وعقد لك لواءً بيده يلوي إليك الأعناق ويشهد لهذا العقد بالإحكام والوثاق، ونحو هذا.

الكتب بالإحماد والإذمام

السلطان محتاج الى مكاتبة مَنْ يقف منه على طاعة واجتهاد، ومناصحة وإخلاص، بالشكر والإحماد والبعث على الازدياد من المخالصة وحسن السعي في الخدمة وغيرهما مما ترتبط به النعمة ويستوجب معه حفظ الرتبة.

ومكاتبة مَنْ يعثر منه على تقصير وتفريط وتضييع بالذمّ والتقريع، لأنّه لايخلو أعوان السلطان من كُفاة يستديم كفايتهم بتصويب مراميهم واستقاف مساعيهم وإحمادهم على تشميرهم وشرح صدورهم ببسط آمالهم، والعِدّة برفع منازلهم ومحالهم وتمييزهم على نُظرائهم وأشكالهم، وعجزه يصلحهم بالتخطئة والاستقصاد والتوبيخ وتقديم الأعذار، والتخويف من سقوط المراتب وقبح المصاير والعواقب.

وينبغي للكاتب أنْ ينتهي في خطاب من انتهى في[٣٣] الحالين الى غايتيهما بمايوجبه كلُّ منهما، وتنتخب المعاني الناجعة في الغرضين ويتوسط فيما بينهما التوسط الذي تقتضيه الحال المُفاض فيها، لانّ في ذلك تقريراً للمحسن على إحسانه ونقلاً للمسئ عن إساءته، وله موقع خطير من النفوس، لأنّه إذا علم الناهض أنّه مثاب على نهضته والوالي أنه معاقب على ونيته، (٤٠٠) اجتهد هذا في الاستظهار لخدمته بما يزيد في رتبته وخاف هذا من حَطّ منزلته وتغير حالته.

ولمّا كانت الرسوم في هذه المكاتبات تختلف بحسب[٣٤] اختلاف أغراضها، وتتشعّب بتشعّب معانيها، ذكرنا الأسس التي

www.dorat-ghawas.com

تُبنى عليها وغَنِينا عن نصّ رسم فيها، ووكَلنا الأمر الى قريحة الكاتب وصناعته وجودة فكرته وإصابته، لاسيّما وعلى هذا الباب مدار مايجري بين خواص الناس وعوامهم، وليست حاجة السُّوقة إليه بدون حاجة الملوك وايقاع أمثلة جامعة على هذه سبيله مستحيل غير ممكن، وإنّما يُرجع في هذا وأمثاله الى قريحة الكاتب العارف الكامل، ووضعه كلّ شيْ في موضعه وترتيبه في رتبته ـ حسبما بيّناه فيما تقدم.

الكتب بالأوامر والنواهي

على هذه الكتب مدار أشغال السلطان وأعماله، لأنّها النافذة في تصريف الأمور وتنفيذ المراسيم الى ولاته وعمّاله.

وليس لها أمثلة فتقدّمها ولا رسوم فنوردها، لكنه ينبغي للكاتب أنْ يؤكّد القول فيها، فإنّ الأمر والنهي، وإنْ اختلف لفظهما، نوع واحد، لأنّ كلّ مأمور به منهيّ عن ضدّه، وكلّ منهيّ عنه مأمور بضدّه.

وينبغي للكاتب أنْ يؤكّد القولَ في امتثال ماأمر به، والعمل عليه، والانقياد له، والانتهاء عمّا نهى عنه، والحذر من الإلمام [به][٣٩]، ويجزم في العبارة عنهما جزماً تامّاً لايتمكن معه من الإخلال ببعضهما (٤٠١) أو التقصير فيهما بِهَوىً أو قضاء[٤٠] حقّ، ويؤق من المبالغة بما يضيق العذر متى وقع تقصير أو تثاقل عمّا حُدّد فيهما. فأمّا تمثيل ذلك بمُثل جامعة مع تفنّن[٤١] المعاني التي يُؤمر بها ويُنهى عنها فمتعذّر.

والكاتب إذا عرف الترتيب الواقع في هذين الغرضين على طريق الإجمال أمكنه أنْ يبسطه[٤٢] إذا احتاج الى التفصيل والبيان بمشيئة الله تعالى.

الكتب في الغيار

جرت عادة الخلفاء الراشدين بإلزام الذمّة المعاهدين بلباس الغِيار تفريقاً بينهم وبين المسلمين وقدحاً لهَمَمِهم بالاستدلال في النزوع الى الإسلام، وكتب الكتب بذلك وقراءتها على رؤوس الأشهاد، والإيعاز الى الناظرين في المعاون بأخذهم بما رُسِم وتأديب من تقدّم على خلاف المأمور.

والرسم فيها أنْ يُفتتح بحمد الله الذي أكرم دين الأسلام عن الضلالة وأهلها وشرّفه على الأديان كلّها، وأعزّه ... وأظهره ... ونصره ... وأداله ... ، وجعله سبيله الأقصد ودليله الأرشد، وبابه الذي لايوصَل إليه إلّامنه، ولاينال ماعنده إلّا به، ويسّره وسهّله، وبيّنه وفصّله، وتمّمه وكمّله، واستخلصه لنفسه وأحبّته، واختصّ به من اصطفاه من بريّته، ولم يجعل معه ديناً ثانياً يُدني من ثوابه ويُنجي من سخطه وعقابه، وفرض الّايقبلَ غيره من أحدٍ من خلقه (٤٠٢) ولايصفح عن الإساءة إلّا لأهله، وبعث به نبيّه محمداً، صلّى الله عليه، بشيراً ونذيراً وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً، فبيّن شرائعه ومناهجه وعَبّد سبله ومدارجه وأوضح آثاره وأعلامه وقرّب متناوله ومرامه، وأنقذ به من غمرة الضلالة وسكرة الجهالة، والناس منكبّون عن الطريق الرشاد عابدون ماينحتون من الجماد، لايهتدون الى هدىً فيستهدون ولاتبصر بصائرهم بلج الحقائق فيستلّون، واستخلف عليه من بعده خيرته من ذريّته وصفوته من عترته الأئمة البررة المعظّمين لحرمته، المقيمين لحدوده، الموقنين لجفوته، المؤدين لفروضه، الحامين لذماره، المرامين عن داره، عناية منه تعالى باعزاز كلمته ونصر رايته، وتصديقاً لوعده في إعلائه على كلّ دين وإظهاره على كُره المشركين.

ثمّ يُقال: يحمده أمير المؤمنين على أنْ أورثه منصب آبائه الطاهرين وأفضى اليه ميراث خلفائه الراشدين، وجعله من المستخلفين على خَلقه والقائمين على نصر حقّه، والدعاة الى سبيله بشافي بيانه والمرشدين الى طريقه بواضح برهانه الذّابّين عن دينه بما اتاهم من سلطانه.

ونسأله الصلاة على سيّدنا محمد، صلّى الله عليه، الذي شرّفنا ببعثته وكرّمنا بوارثته، وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين عليّ

www.dorat-ghawas.com

ابن أبي طالب الذي خرق له العادة فيه وآيده ببأسه على محاديه، فكسر الأوثان ... صلّى الله عليهما وعلى آلهما وسلّم.

ثمّ يُقال: أمّا بعدُ فإنّ أمير المؤمنين بما استرعاه الله (٤٠٣) من دينه، واستحفظه من شريعته، وكفله من إعلاء منارها وإعزاز أهلها وإذلال من خالفها، لايزال يكرم أهل الإسلام الذين خصّهم الله تعالى بكرامته ويميّزهم عن الأمم بما ميّزهم الله تعالى من نعمته، ولايفسح لأحد من الذّمّة وإن استعان بهم العمال... من عمائر الأعمال وجباية الأموال في مساواتهم في زي وملبس ولاجمال ولامركب، وضعاً لهم ... يفصلهم عن أهل الأمانة والإيمان، الذين شرّفهم الله بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وفضلهم بشريعته الهادية على كافة أهل الكتاب، وجبلهم على التراؤف والتعاطف والتكافي والتناصف والاتفاق والتالف، وحبّب إليهم الصدق وزيّن لهم الحقّ، وعقد نيّاتهم على اليقين، وأوجب لهم مجاورته في دار النعيم.

ثمّ يُقال: ونمى الى أمير المؤمنين أنّه فشا بأعمال الحضر وغيرها للذمّة زيّ شاركوا فيه أكابر أهل الإسلام حتى صار الجاهل بهم يلقى الرجل منهم فيُحييه بتحيّة المسلمين ويخاطبه بخطاب الشريف. فأنكر أمير المؤمنين ذلك وأكبره، وخرج أمره بإنشاء هذا السجل ونفّذه الأمر لمتولي الشرطة والحِسْبة بكفّ مَنْ يذهب من الذّمة الى مباهاة المسلمين بشيْ من النعمة التي أنعم الله تعالى عليهم بها، والزام كافّتهم بلباس الغيار وشدّ الزنانير في الأوساط، وصبغ عذب العمائم بالصّفرة، ومعاقبة من يخلّ بهذا المرسوم ليتباين المسلمون والذمّة في الزي والجمال كما يتباينوا في الدين والكمال (٤٠٤) إذ لاسبيل الى تباينهم في الصنعة البشرية التي شرك الله تعالى فيها الخبيث والطيب والبرّ والفاجر والمؤمن والكافر، وجعلها موهبةً شاملةً للنوع بأسره مع علمه بالمؤمن وإيمانه والكافر وكفره.

ثمّ يؤكّد هذا الكتاب بما يؤكد به مثله ويُرصّع من الآيات بما ينتظم في سلكه إنْ شاء الله تعالى.

الحمد لله ربّ العالمين وصلواته على سيّدنا محمد خير خلقه وآله وصحبه وسلامه. ولاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

الهوامش

(١) في الأصل: وهو الأصلي. (٢) في الاصل: مقدّر. (٣) في الأصل: مسطر. (٤) كذا في الأصل. (٥) كذا. والصواب: غير الجائز. (٦) في الأصل: بالواو. (٧) الطور ١ ـ ٣ (٨) القلم ١. (٩) هود ٤١. (١٠) الاسراء ١١٠. (١١) النمل ٣٠. وينظر: الاوائل ١/ ١٤٠. (١٢) ينظر: الزاهر ٢/ ٣٦٣ والاوائل ٨٥. (١٣) من خطباء العرب وحكمائها قبل الاسلام. (المعمرون والوصايا ٨٧، الأغاني ١٥/٢٤٦). (١٤) تنظر هذه الوجوه في: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ٣٤٢. (١٥) الأنعام ١٢٧. (١٦) أي يتناوبونه. (١٧) في الأصل: الذي. (١٨) في الأصل: تلي. (١٩) ينظر: أدب الكاتب ٥٧٤ ورسالة الخط والقلم ٢٩ وأدب الكتاب ١٤٣ وكتاب الكتاب ٩٨ والاقتضاب ١/ ١٨٩. (٢٠) الأوائل ١/ ٢٢٢. (٢١) الرسول الكريم (ص) أول من فعل ذلك كما سلف. (٢٢) يزيد بن عبد الملك بن مروان، ت ١٠٥ هـ. (تاريخ الخلفاء ٢٤٦). (٢٣) في الأصل: فرأدوا. (٢٤) في الأصل: اختصر. (٢٥) كذا في الأصل. (٢٦) أدب الطاهرين ٦٥ وفيه: ذي مقة. وأخلّ به شعره في مجلة الخليج العربي. (٢٧) شاعر وكاتب ووزير، ت ٢٣٣ هـ. (تاريخ بغداد ٢/ ٣٤٢، وفيات الأعيان ٥/ ٩٤) (٢٨) ديوان الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ٥٠. (٢٩) في الأصل: ستمر. (٣٠) ينظر في التاريخ: رسالة الخط والقلم ٣٥ وأدب الكتاب ٧٨ وكتاب الكتّاب ٧٩ والاقتضاب ١/ ١٩٦. (٣١) في الأصل: بل قال. (٣٢) الأزمنة ٢٢. (٣٣) في الأصل: زياد بن أمية. والصواب ماأثبتنا. ينظر: الأوائل ١/ ١٤٢ وصبح الأعشى ٦/ ٣٥٥. (٣٤) الشاعر المشهور (ينظر: الشعر والشعراء ١٧٩ والأغاني ٢٤/ ٢٥٩). (٣٥) في الأصل: فقتله. وهو وهم. (٣٦) النمل ٢٩. وينظر: تفسير القرطبي ١٣/ ١٩٣.

www.dorat-ghawas.com

هوامش الباب الثامن

(١) في الأصل: فيه الكاتب اولاً من انشاء المعاني ضربين الأول.. (٢) في الأصل: الشيئين. في الأصل: أشف. والصواب مافي صبح الاعشى ٨/ ٢٤٤ نقلاً عن الكتاب. (٤) في الأصل: الذي. والتصحيح من صبح الأعشى. (٥) من صبح الاعشى، في الأصل: له. ومابين القوسين المربعين من صبح الاعشى. (٦) في الأصل: العبد. (٧) من صبح الأعشى ٨/ ٢٤٧. (٨) النساء ٥٩. (٩) في الأصل: متصافين متوافين (١٠) من صبح الاعشى ٨/ ٣٠٦ وفي الأصل: وخاص. (١١) من صبح الاعشى وفيه: المطعم. (١٢) في الأصل: امتعظ. وهو خطأ. (١٣) الأحزاب ٣٣. (١٤) الشورى ٢٣. (١٥) في الأصل: الخلافة للخلافة عليهم. وأثبتنا رواية صبح الأعشى ٨/ ٢٣٤. (١٦) في الأصل: فلان. (١٧) في الأصل: انه. ومأأثبتناه من صبح الاعشى ٨/ ٢٣٥. (١٨) في الأصل: وخموا. ومأأثبتناه من صبح الأعشى. (١٩) آزره ووازره: أعانه على الأمر. وفي صبح الاعشى: بالتآزر. وهو أفصح. (٢٠) الأنفال ٦١. في الأصل: السلام. (٢١) التوبة ٩. (٢٢) في الأصل: الذي. (٢٣) في الأصل: فيه. (٢٤) من صبح الاعشى ١٤/ ٤. (٢٥) فصلت ٤٢. في الأصل: ولامن قلبه. (٢٦) من صبح الاعشى ٨/ ٢٥٩، في الأصل: مجاهد. (٢٧) من صبح الاعشى ٨/ ٢٦٠. (٢٨) من صبح الاعشى ٨/٢٦٣. (٢٩) من صبح الاعشى ٨/٢٦٤، في الأصل: أشجاعهم. (٣٠) في الأصل: ويراسل. (٣١) في الأصل: ما. (٣٢) في الأصل: دعوة. ومأأثبتناه من صبح الاعشى ٨/٢٦٥. (٣٣) في الأصل: نسأله. ومأأثبتناه من صبح الاعشى ٨/٢٦٥. (٣٤) من صبح الاعشى ٨/٢٦٦، وهي بياض في الأصل. (٣٥) من صبح الاعشى، في الأصل: وتجلا. (٣٦) من صبح الاعشى، في الأصل: من الحسنين. (٣٧) توهّر: مثل تهوّر. (٣٨) من صبح الاعشى ٨/٢٦٦ وهي بياض في الأصل. وبعدها (البرهان)، لامعنى لها مع ماورد في صبح الاعشى. (٣٩) الرّين: كالصدأ يغشى القلب. (٤٠) النساء ٥٩. (٤١) من صبح الاعشى ٨/٢٦٦. (٤٢) آل عمران ١٠٥. (٤٣) آل عمران ١٠٣. (٤٤) من صبح الاعشى ٨/٢٦٧. (٤٥) في الأصل: تشكعتم. (٤٦) في الأصل: تسمعوا. (٤٧) الأنفال ٢٥. (٤٨) في الأصل: المبتداة. (٤٩) يس ٧٠. (٥٠) في الأصل: انالة. ومأأثبتناه من صبح الاعشى ٨/٣٠٤. (٥١) في الأصل: نسأله. ومأأثبتناه من صبح الاعشى. (٥٢) في الأصل: توقيفه. ومأأثبتناه من صبح الاعشى. (٥٣) في الأصل: فامتعظ. ومأأثبتناه من صبح الاعشى. (٥٤) في الأصل: أولتكم. ومأأثبتناه من صبح الاعشى. (٥٥) في الأصل: يبس. (٥٦) من صبح الاعشى ٨/٣٠٥. (٥٧) من صبح الاعشى، في الأصل: فيكم. (٥٨) من صبح الاعشى ٨/٢٩٠. (٥٩) النجم ٣١. (٦٠) من صبح الاعشى، في الأصل: من. (٦١) في الأصل: ف. وهو خطأ. (٦٢) في الأصل: الخليم. والصواب مافي صبح الاعشى ٨/ ٢٧٥. إذْ سبق ذكر الحليم. (٦٣) في الأصل: صبح ٢٩. (٦٤) في الأصل: استخصاف. (٦٥) من صبح الاعشى ٨/٢٧٦، في الأصل: مصافقة... (٦٦) في الأصل: التوقفة. (٦٧) من صبح الاعشى ١٣/ ٥٥. (٦٨) من صبح الاعشى، وهو في الأصل. (٦٩) من صبح الاعشى، في الأصل: اتصالاً. (٧٠) يونس ٥. في الأصل: وهو. (٧١) من ٢٩. (٧٢) يس ٣٩ - ٤٠. (٧٣) في الأصل: ومواهنة. ومأأثبتناه من صبح الاعشى ٨/٣٤٢. (٧٤) في الأصل: مارأى. والصواب مأأثبتناه من صبح الاعشى. (٧٥) النمل ١٩. (٧٦) في الأصل: (٧٧) من صبح الاعشى ٨/ ٣٤٦، في الأصل: الى. (٧٨) من صبح الاعشى ٨/٣٤٧، وفي الأصل: (٧٩) من صبح الاعشى ٨/ ٣٠٨. (٨٠) من صبح الاعشى، وفي الأصل: : قضى. (٨١) من صبح الاعشى، وفي الأصل: : تعين. (٨٢) في الأصل: تبسطه، ومأأثبتناه من صبح الاعشى.

www.dorat-ghawas.com